

مفهوم الإنسان

عند

أونامونو

د / محمد عبد الحفيظ

أستاذ الفلسفة المساعد

كلية الآداب - جامعة بنها

مقدمة

من وقت لآخر ينهض رجال يجسدون طبائع ومزاج شعوبهم أو مطامحهم بقوة يحققون معها تأثيراً غير عادي ورفعة رمزية ينسب إلى أشخاصهم أكثر مما ينسب لإنجازاتهم. وقد عرفنا بعضاً من أمثال هؤلاء الرجال في عصرنا وكلهم تقريباً في المجال السياسي، وإنه لأمر أكثر قدرة بالنسبة لثمة كاتب أن يصبح التجسيد المعترف به لروح شعبه، لأن مجال عمله بطبيعته الحقيقية محدوداً أكثر من العمل العام، ومع ذلك فقد يصل إلى تميز عام شامل من خلال استكشاف فكره الخاص وفكر الأمة الذي يجد نفسه معروفاً من خلاله. وأعتقد ان تلك هي حالة الأسباني ميغيل دي أونامونو^(١).

يرفض أونامونو أن يضع معنى محدد للإنسان، ويرتبط هذا بفكره الوجودي الذي يري أن الإنسان من الصعب أن نضعه في إطار محدد، لأنه متجدد باستمرار ويتناقض تماماً مع القوالب الجامدة. والإنسان لا يتميز فقط بالفكر، بل إن أهم ما يميزه هو الإحساس والمشاعر والوجدان وهي تنسم بالحيوية والتجدد. ولذلك كان اهتمامه الدائم بالتنقيب في أعماق الإنسان الفرد الذي يعد بداية انطلاقه نحو الخارج. واستحوذ علي اهتمامه المصير الإنساني، إنطلاقاً من الأبعاد الوجودية التي تتمثل في القلق واليأس والحرية والمعاناة والشك والصراع، وغير ذلك من الأبعاد التي تلتصق بالمصير الإنساني.

وكانت فلسفته تعبيراً صادقاً عما يؤرقه ويزعزع استقراره النفسي ويزلزله بسبب تدينه، ومحاولته إيجاد صيغة مناسبة تساعد علي تقوية موقفه الديني، ولا سيما فيما يتعلق بالخلود، وأن هذا الخلود لا يمكن فصله عن الألوهية المسيحية

وتتمتج الفلسفة الوجودية بشخصية الفيلسوف الوجودي، وتتصف فلسفتهم بأنها ترجمة حقيقية لما يسيطر على حياتهم من معاناه وألم. وتعتبر فلسفتهم بشكل

واضح عن حياتهم، ولا يمكن فصل الفلسفة الوجودية عن حياة فيلسوفها وما يقلقه وما يؤرقه.

إن فلسفة أونامونو هي فلسفة ملتصقة بمأساة الحياة، وتفكير في المعني اللأسيان للحياة. إنها تنبثق من الإيمان، وتستند إلى اللامعقول.. إنها فعل جوهره

^١) Barea, Arturo, Unamuno, Bowes and Bowes, Cambridge, 1952,P,7.

النضال، ولا نتيجة لهذا النضال غير هزيمة الإنسان، لكن هذه الهزيمة نفسها هي أروع انتصار. ^(١)

وفي محاولة أونامونو التوفيق بين الأسلوبين المتناقضين للحياة - الفانى والروحانى - ركز على مسار وسطى حيث نستطيع أخذ الدنيا إلى الدير، ونستطيع أن نحفظ بروح الدير في وسط الدنيا. ورغم هذا التوفيق الذى حاوله إلا أنه عاش بأسلوب غير توفيقى لأقصى درجة. ^(٢)

وهكذا نجد أن أهم المشكلات الفلسفية التي استحوذت علي اهتمام أونامونو هو الإنسان العيني، الموجود الحى المكون من لحم وعظم، الإنسان الذي يولد ويموت، ويرتبط ليس بعقله فقط، ولكن بإرادته وعاطفته، بمعنى أوضح يتفلسف بكل كيانه. وكذلك الصراع المحتدم بين العقل والإيمان. وسنجد ذلك واضحاً في دفاعه عن الإيمان بالإله القلبى وكذلك تمسكه بالخلود. وهذا ما سوف نتناوله في بحثنا.

^(١) د - عبد الرحمن بدوي - دراسات في الفلسفة الوجودية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - الطبعة الاولى - ١٩٨٠ ص ١٧٩.

^(٢) Angel Del Rio – Miguel De Unamuno , Tree Exemplary Novels , Translated by Angel Flores , Grove Press , INC ,New York , 1956 ,.P,154.

الفصل الأول : السمات العامة لفلسفة أونامونو

أولاً : المصادر الفكرية في فلسفة أونامونو الإنسانية

ثانياً : إنسانية التقدم

الفصل الأول

السمات العامة لفلسفة أونامونو

أولاً : المصادر الفكرية في فلسفة أونامونو الإنسانية

في عام ١٨٩٧ الذي قام فيه ميغيل دي أونامونو - كان يبلغ من العمر ٣٣ عاماً - بطباعة روايته الأولى " السلام في الحرب "، وحصل بابلو بيكاسو ذو الخمسة عشر عاماً تكريماً في معرض وطني في مدريد على صورة زيتية ضخمة " العلم والاحسان ". والمقارنات بين هذين العاملين وبين السيرتين اللاحقتين لمبدعيها اللذان بالإشتراك مع جوزي جاست، بابلو كاسلز، وفيدريكو جارسيا لوركا، يشكلون الجزء الأعظم من تراث أسبانيا حتى القرن العشرين.^(١)

إن نهضة أسبانيا الروحية المعاصرة بدأت بالجيل الذي إتفق علي تسميته بأنه جيل " العام الثامن والتسعين "، حيث هزمت أسبانيا سنة ١٨٩٨ هزيمة منكرة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية. ترتب علي ذلك أن فقدت أسبانيا كل مستعمراتها في أمريكا وفي المحيط الهادي، وأصبحت دولة صغيرة بعد أن كانت في القرنين : السادس عشر والسابع عشر سيدة أوروبا ومن أقوى دول العالم.^(٢)

إن جيل أونامونو - جيل ٩٨ - أكد ذاته من خلال القوة التي بها شعر بهذا النزاع القومي، فهو جيل لم يكن مكون من مؤرخين أو مفكرين سياسيين وإنما من فنانيين وشعراء ذاتيين للغاية اتساقاً مع المناخ الأدبي وقد عبر كل واحد منهم بطريقته الخاصة عن الشعور الكئيب لوطن يعيش أزمة. ويسعي في ذات الوقت لفتح مجالات من أجل المستقبل. وقد أبدعوا معاً أروع أدب ظهر في أسبانيا منذ العصر الذهبي. وبعد دفعه البداية اتخذوا طرقاً مختلفة. وقد استمر أونامونو - أكثر من الآخرين - في فهم المشكلة الأساسية لأسبانيا. وعن طريق الاشتباك مع صراع أمة كاملة، أقبل أونامونو مثل قليل من المفكرين الآخرين الذين يضمهم عصرنا ليصارع المشكلات الجوهرية للحياة والموت والوجود الإنساني.^(٣)

^١) Unamuno , Migel De , Peace in War , A Novell , Translated by Allen Iacy and Martin Nozich with Anthony Kerrigan , Bollolingen series IXXV. I ,Princeton University press , P,Vii.

^٢) د - عبد الرحمن بدوي - دراسات في الفلسفة الوجودية ص ١٤٨ .

^٣) Angel Del Rio – Miguel De Unamuno.P,22.

يذهب أونامونو إلى القول بأنه لا يوجد من يصنفي، هذا الهوس لتصنيف كل شيء، عبث، ذلك ما كتبه في كتاب " تدريس الدراما " في ١٩٠٥، أتذكر انه ذات مرة سألني شخص بعد أن تحدثت معي باستفاضة، وانت ما هي هويتك؟ أجبتة أنني متنوع يعني أكتب في كل شيء. وبالفعل كما فعل كيركجور، وفريد ريتش. ويتحدى أونامونو التصنيف لأنه كان ناقداً اجتماعياً، وروائياً، وكاتب سيناريو، وكاتب قصة قصيرة، وكاتب مقال، وفيلسوفاً، واستاذاً للغة اليونانية في جامعة سالامانكا، ورئيساً للجامعة، وناقداً أدبياً، وخصماً صريحاً مجاهراً للناس المهمين " كبار أو وجهاء المجتمع "، ومجادلاً، وكاتب مقدمات لكتب الآخرين، ومترجماً، وشاعراً، وصحفيًا، كل هذا في وقت واحد، ولم يكن تابعاً لجماعة ولم أحضر لأقدم برنامجاً محددًا. قال هذا في مؤتمر في مدريد ١٩٠٦. (١)

واتساقاً مع صعوبة تصنيف أونامونو، لأنه ليس فيلسوفاً، لأن أفكاره لا ترقى إلى تكوين مذهب فلسفي بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ، ولا هو قصصياً، لأن قصصه تتجاوز القواعد التقليدية للقصة، ولا هو كاتباً مسرحياً، لأن الجمهور اتفق علي أن مسرحياته ليست من المسرح في شيء، ولا هو شاعراً، لأن شعره حافل بالأفكار أكثر منه بالغناء والموسيقى، ولا هو سياسياً، لأن اتجاهاته السياسية غير محددة، بحيث يعرف ما هو مذهبه السياسي، وبشكل عام لم يكن واحداً من هؤلاء، لأنه كان كل هؤلاء مجتمعين في شخص واحد (٢).

ونتيجة المأساة التي تعرضت لها أسبانيا والقلق الذي أصاب الجميع نجد أن أونامونو يتناول ذلك في كتابه " المعنى الآسيان للحياة " وإن كان تركيزه علي المأساة الروحية الداخلية التي يحيها ولكنها ذهب إلى أن أزمته تلك التي يحيها تشبه المأساة التي يحيها المجتمع الاسباني (٣).

ومما لا شك فيه ان كيركجور كان تأثيره كبيراً علي الفلسفة بصفه عامة ولا سيما الفلسفة الوجودية. وإن كنا نذهب إلى القول بأن أونامونو وجودياً فإن تأثير كيركجور واضحاً بما لا يدع مجالاً للشك. ونجد تشابهاً بين كيركجور وأونامونو متمثلاً في أن كيركجور كان فيلسوفاً أدبياً وكذلك كان أونامونو فيلسوفاً أدبياً ويتراجع دور العقل عند كيركجور، وكذلك يتراجع دور العقل عن

١) Unamuno , Miguel De peace in war ,P xvi.

٢) د - عبد الرحمن بدوي - دراسات في الفلسفة الوجودية ص ١٦٩.

٣) Martin Nozick ,Unamuno , The Agony of Belief , Princeton university ,New Jersey , 1982 ,P,29.

أونامونو، وتذبذبت علاقة كيركجور بمجتمعه وبين التأييد والرفض، وكذلك أونامونو كانت علاقته بمجتمعه بين التأييد والرفض، والوجودية عند كيركجور وجودية متدينة وكذلك وجودية أونامونو وجودية متدينة^(١).

فقد تعلم أونامونو الدانماركية خصيصاً بغرض قراءة كيركجور في الطبعة الأصلية، وأصبح بتأثيره رائداً للفكر الوجودي. كما استوعب أعمال روسو، وابسن، وكارليل، وليوباردى، ومازيني، وكانط، وهيجل، ومن بروتستانية لوثر إلى المحدثين مثل ريتشل، وهارناك ترويلتس وآخرين. فضلاً عن تلك الشخصيات المعذبة، وزعماء القلق الديني مثل باسكال، وأحس معهم مثل كيركجور بقرابة روحية خاصة^(٢).

وإن كنا قد أشرنا إلى أن هناك اتفاقاً كبيراً بيني فلسفة كيركجور وأونامونو فإن ذلك لا يعني وجود اختلاف بينهما ولا سيما في المجال السياسي. فنجد موقف كيركجور محددًا وصريحاً ازاء اندلاع الثورات في أوروبا عام ١٨٤٨ ضد الملكية. فنجد موقف كيركجور مؤيداً للحكم الملكي متسقاً مع موقفة الروحي الذي يري أن الملوك يتم تأييدهم من قبل الرب، وأن المساواة الوحيدة هي المساواة المسيحية للإنسانية أمام الرب^(٣).

ونتيجة اختلاف الفروق بينهما أي بين كيركجور وأونامونو، فقد تعرض أونامونو لمأساة في العاشرة من عمره عندما وضعت مدينته بلباو تحت حصار طويل. وفي ضرب المدينة بالقتال سقطت القذيفة الأولى خارج منزل أنامونو في ١٨٧٤/٢/٢١. وقد تم تصوير ثمة محنته وباستفاضة في أكثر جزء تأثيراً في رواية "السلام في الحرب" إذ تم استعراض آثار الحصار علي المواطنين وذلك بشكل مفصل ويثير المشفقة. وفي سيرة ذاتية رائعة عن طفولته في ١٩٠٨ يكتب أونامونو أنه قبل هذا التاريخ "لا احتفظ إلا بالذكريات المنفصلة" وبعد هذه المسيرة يأتي مسلسل الأحداث المتعلقة بتاريخه، وقد ميز حصار بلباو نهاية طفولته الحاملة بدرجة ما وبداية وعيه بالتاريخ الأكثر رحابه الذي عاشه^(٤).

¹⁾ Mary Ann Alessandri , Flesh , and Bone Unamuno's Quixotism as an Incarnation of Kierkegaard's Religiousness , The Pennsylvania state university , 2010 ,p,30.

²⁾ Angel Del Rio ,Miguel De Unamuno ,P,18.

³⁾ Alfred stern , Unamuno Pioneer of Existentialism , Cambridge university , press , 1967, p,73.

⁴⁾ Unamono , Migel De ,Peace in war , p , xi.

وفي رسالة من جامعة سالمانكا إلى جامعات واكاديميات العالم بشأن الحرب الاهلية الاسبانية. أكد أونامونو علي أن جامعة سالمانكا التي لطالما حافظت علي أفقها الروحي بهدوء وحرصانة بمعزل عن النشاط السياسي، لتعلم وبنفس الطريقة أن تقاليدنا المنتقلة من جيل إلى جيل يضع عليها التزاماً من وقت لآخر بأن ترفع صوتها فوق صراعات البشر من أجل تحقيق التزامها بإزاء العدل.. فإن جامعة سالمانكا بأسي بالغ أنه علاوة علي العنف الغاشم للحرب الاهلية فإن ثمة افعال مريرة تم إرتكابها تضطرها للقيام بواجبها بتسجيل اعتراضها الشديد للعالم المتحضر. ثمة أعمال تتسم بالوحشية من إغتيل للأفراد العلمانيين والاكليركيين، وتدمير لا مثيل له. (١)

فمنذ عام ١٩١٤ عندما أعفي أونامونو من رئاسة الجامعة بسبب هجماته المروعة علي النظام الملكي الأسباني وضد الديمقراطية الصورية وهي الشئ الوحيد الذي أفسد الشعب.. وفي بداية العشرينيات، عندما أقام الجنرال ميغيل بريمودي ريفيرا ديكتاتوريته العسكرية انقادا للعرش، أصبح أونامونو متحمساً في شجبه للأساليب الديكتاتورية العسكرية ليتم نفيه إلى جزء الكناري. ومن هناك هرب إلى فرنسا ليعيش في المنفى في باريس أولاً ثم في هندي في دولة الباسك الفرنسية حيث أحس أنه قريب من أرض وطنه، وأصبح رمزاً للنضال الروحي من أجل الحرية ضمن مفكري العالم. (٢)

وفي افتتاح السنة الجامعية في ١٢ أكتوبر ١٩٣٦ - حيث توفي في نهاية هذا الشهر - نهض أونامونو رئيس الجامعة ليتحدث معارضاً جماعة العنف المتجسدة في الجنرال ميلان استراي، الرجل الذي ابتدع صرخه " عاش الموت " والموجود الآن في قاعة الاحتفالات. وألقى خطبة مطولة مهاجماً " الأسبان الأشرار " علي الجانب الآخر. وعندما أعلن عن وجود وطنيين وغير وطنيين في كلا المعسكرين وأن ثمة أسبانيا معاقبة، علا الصراخ عليه ليتوقف عن الكلام.. واعفي أونامونو من وظيفته فوراً (٣).

وإذا كان أونامونو قد تأثر بأبي الوجودية نجد لزاماً علينا أن نتوقف لنرى ماذا تعني الوجودية بشكل عام. وسنجد تقارباً بين فلسفة أونامونو وبين ما تذهب إليه الفلسفة الوجودية ولاسيما عن كيركجور. فنجد تعدد الآراء واختلافها بشأن

¹⁾ Rudd, M, T, The lone Heretic A Biography of Miguel de Unamuno, jugo, university of Texas press, Austin, 1963, p, 11.

²⁾ Barea, Arturo. Unamuno, P, 53.

³⁾ Barea, Arturo. Unamuno, P, 57.

الفلسفة الوجودية، ليس فقط فيما يتعلق بالفلاسفة الوجوديين، ولكن أيضاً في النقد الذي وجه إلى الفلسفة الوجودية " حيث إن الفلسفة الوجودية داخل القارة الأوروبية هي في جوانب معينة أمر محير. بل إن من الصعب أحياناً أن يري المرء فيها أي شيء يمكن التعرف عليه بوصفه فلسفه بالمعنى التقليدي. ومع ذلك يبدو أن نقطة البداية العامة التي تشترك فيها الحركة بأسرها هي النظر إلى المذهب العقلي في الفلسفة علي أنه عاجز عن تقديم تفسير سليم لمعنى الوجود الإنساني. فالعقلاني حين يستخدم نسقاً من المفاهيم يقدم أوصافاً عامة لا تلتقط المذاق المميز للتجربة الإنسانية الفردية... فالعقلانية، إذ تتناول العالم من الخارج لا تعطي التجربة الحية في طابعه المباشر حقها، بل ينبغي أن تدرك هذه التجربة من الداخل ". (١)

ونجد أن الفلسفة الوجودية علي النقيض تماماً من الفلسفة الوضعية المنطقية التي تذهب إلى القول بأن المهمة الوحيدة للفلسفة هي العمل علي ربط اللغة بالتجربة ربطاً علمياً، وأن تقوم بصياغة الواقع الخارجي صياغة منطقية. ولا سبيل إلى تحقيق هذه الغاية الا عن طريق التسلح بأسلحة " التحليل المنطقي " من أجل صبغ التفكير الفلسفي بخصائص المعرفة العلمية ألا وهي : الوضوح والاتساق الباطني، والقابلية للفحص، والتكافؤ، والدقة، والموضوعية. (٢)

ولقد ذهب كيركجور إلى القول بأن ميتافيزيقا هيجل لا علاقة لها بالوجود البشري. لأن كيركجور يعتقد أن الجانب المأساوي في وجود الفرد : آلامه وعذابه، والتزامه الخلقى الذي يتعذر عليه تجنبه، يتغلغل ذلك كله في أعماق الوجود البشري. ومن هنا كانت الأنطولوجيا الهيجلية عند كيركجور تتعارض أشد المعارضة مع الخصائص الجوهرية للوجود البشري. (٣)

وهكذا نجد تأثير أونامونو بالوجودية ولا سيما عند كيركجور. ويذهب أونامونو إلى القول بأن الفرد لا يعيش مطلقاً منفصلاً عن معرفته، بمعنى أنه لا انفصال بين الحياة وبين المعرفة. ويحدث التصادم بين من يجعلون المعرفة من أجل ذاتها، وبين من يجعلون المعرفة من أجل الحياة وفي خدمتها. لأن المعرفة شيء والحياة شيء آخر مختلف تماماً. يعني هذا أن هناك تعارضاً بين كل ما هو

(١) برتراندرسل - حكمة الغرب - الجزء الثاني - الفلسفة الحديثة والمعاصرة - ترجمة د - فواد زكريا - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - ١٩٨٣ ص ٢٩٦.

(٢) د - زكريا ابراهيم - دراسات في الفلسفة المعاصرة - مكتبة مصر - ١٩٦٨ ص ٢٨٤.

(٣) د- إمام عبد الفتاح إمام - كيركجور رائد الوجودية - الجزء الثاني - دار الثقافة للنشر والتوزيع - ١٩٨٦ ص ٧٩.

حيوي وبين كل ما هو عقلي. بمعنى أن كل ما هو حيوي يتعارض مع كل ما هو عقلي، وأن كل ما هو عقلي يتعارض مع كل ما هو حيوي^(١).

ولقد تناول أونامونو ديكرت الذي يعد علي النقيض تماماً مع ما يذهب إليه أونامونو. لأن ديكرت يذهب إلى القول بأنني إذا صممت علي أن أشك في كل شيء، فأخليت ذهني من كل معتقد، وتوقفت عن كل حكم، بقي أمامي مع ذلك أمر مؤكد : وهو أنني مهما أشك، ومهما أنكر، فلست بمستطيع أن أنكر أنني حين أشك، وأني في لحظة تفكيري، بل في لحظة خطئي في تفكيري لا بد أن أكون " أنا افكر، وإذن فأنا كائن "^(٢).

هنا نجد أونامونو في مناقشته لمقولة ديكرت يعترض عليها لأنها تفترض أن البداية الحقيقية للفكر، بينما نجد أن البداية الحقيقية عند أونامونو هي الوجود، ولذلك يذهب إلى القول بأنني موجود، وهذا يعني أنني أفكر.^(٣)

واتساقاً مع موقف أونامونو نجد اعتراض جبريل مارسيل أيضاً علي فكر " ديكرت " الذي يمتلك نفسه ولا يمتلك موضوعه، علاوة علي انفصاله عن الأشياء وليس في مقدور المعرفة أن تصل إلى إثبات الوجود، لأن المعرفة لا تنفصل عن الوجود ولا ينفصل وجودي الذاتي عن الوجود الذي أشارك فيه. إن موقف مارسيل يختلف تماماً عن " الكوجيتو الديكرتي (أنا أفكر إذن أنا موجود)، إن هذا الجسد لا يمكن أن أقول أنه أنا وأنه ليس أنا وحتى أنه لي (شيء).. إنني لا أستطيع أن أعامل نفسي كشيء منفصل عن جسدي، وأنه منذ اللحظة التي أعامل فيها جسدي كموضوع علمي، فإنني أعزل نفسي إلى الأبد".^(٤)

¹⁾ Unamuno , Migel De , The Agony of Christianity ,Translated with an introduction By kurt F, Reinhardt.Fredrick Ungar co. New York , 1960,PP,34,35.

^{٢)} د - عثمان أمين - ديكرت - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة السادسة - ١٩٧٦ ص ١٢١، ١٢٢.

³⁾ Unamuno , Migel De , The Agony of Christianity,p,36.

⁴⁾ Marcel ,Gabriel ,Being and Having – A Translation by Katharine Farrer of Etre et Avoir – Printed by Robert Maclebose and company ,Limited The University Press ,Glasgow , 1949,P,12.

ثانياً: إنسانية التقدم

إن موضوع الفلسفة عند أونامونو هو الإنسان العيني الموجود الحي، الذي يتكون من لحم وعظم. الإنسان بمعناه الفردي الذي يولد ويموت ويتفلسف، لا بعقله فحسب، بل بإرادته وعاطفته وروحه وبدنه. بمعنى أدق أن الإنسان يتفلسف بكل أجزائه. (١)

وأصبح التقدم في العصر الحديث إحدي الحقائق المسلم بها. وقد جاءت فكرة التقدم إعتراضاً علي النظريات القديمة التي تذهب إلى القول بأن العصر الذهبي للإنسانية موجود في الماضي وليس في المستقبل. (٢)

ونجد أن التقدم عند العديد من الفلاسفة يتصف بالضرورة، نجد ذلك عن كونت، وسبنسر، وهيجل... إلخ. وقد رأى كونت أن التقدم التاريخي للإنسان يبدأ بالمرحلة اللاهوتية ويمر بالمرحلة الميتافيزيقية، وانتهاء بالمرحلة الوضعية. (٣)

ويعترض أورتيجا علي الحتمية التاريخية التي تعني التخلي عن العمل والكفاح، طالما أن تقدم الإنسانية حتمياً " بل يعني ذلك التخلي عن القيام بأي جهد أو مسئولية توكل إلينا. ومن ثم فإننا سنظل في (نوم عميق)، ونترك الإنسانية تحمل إلينا السيادة والكمال ". (٤)

ولكن نجد أونامونو يذهب إلى أن التغيير الجذري في المجتمع يعد السبيل الوحيد للإعلاء من شأن قيمة الإنسان. نجد ذلك بصورة واضحة في مقالة (الحضارة والمدنية). حيث يذهب أونامونو إلى القول بأن هناك وسطاً خارجياً ووسطاً باطنياً أو داخلياً، وهنا يعني بالوسط الخارجي عالم الظواهر المحسوسة، والوسط الباطني هو شعورنا نحن. ولا نستطيع ان نضع حداً فاصلاً بين كلاً الوستين. لأننا لا نستطيع أن نحدد أين يبدأ الواحد أو ينتهي الآخر. لأنني أقول أفكارى وإحساساتي كما أقول كتبي وساعتي. (٥)

(١) د - عبد الرحمن بدوي - دراسات في الفلسفة الوجودية ص ١٧٧.

(٢) Paul Edwards , The Encyclopedia of the Philosophy , The Macmillan and company and the free press ,New York ,1972 , Vol.,3,p,483.

(٣) David pace , cloude Ievi , strouss , the Beorer of Ashes Rutledge and kegan paul , 1983,p,102.

(٤) Ortega Y Gasset , Jose , Man and Crisis , Tran form the Spanish by Mildred Adams , George Allen, univin Itd London , 1959 , P. 27.

(٥) د. عبد الرحمن بدوي - دراسات في الفلسفة الوجودية ص ١٨٠.

بناء علي ذلك نستطيع القول بأن هناك عالمان في وقت واحد ألا وهما عالم الداخل، وعالم الخارج، وهناك مشاركة بين الشعور وبين الطبيعة. وكل شئ يحيا في الشعور، في شعوري، نعم كل شئ حتي شعوري بذاتي، وحتى ذاتي أنا وذوات سائر الناس. ومن المهم جداً أن نشعر شعورنا عميقاً جداً بهذه المشاركة بين شعورنا وبين العالم، وكيف أن هذا الأخير من عملنا كما أننا نحن من عمله. لأن عدم إدراك مثل هذه المشاركة يفضي إلى نظرات جزئية، مثل تلك التي تسمى باسم " التصور المادي للتاريخ " القائل بأن الإنسان مجرد لعبة في أيدي القوة الاقتصادية.^(١)

وهنا يطرح سؤال نفسه هل التقدم اجتماعياً أم فردياً ؟ وهنا نجد الإجابة عند أونامونو أن الذي يتقدم منذ اليونان هو العلوم والفنون والصناعات والنظم الاجتماعية والوسائل والآلات ولا ينطبق هذا علي القدرة الإنسانية الفردية. لأننا حين نولد لا نختلف في شئ عند ولادتنا عن الذي يولد عند قدماء اليونان. لأننا نري العمل المتراكم للقرون في وسطنا الاجتماعي، لا في تركيبنا الباطن أو تركيبنا العقلي. ولا يوجد شك في أن تحطم الآلات الميكانيكية لا يعني تحطماً في العقول الإنسانية، ولكن سيظل العلم قابلاً للانتقال من عقول إلى عقول. إن من الجنة تثمر الشجرة، والحبّة تحتوي في ذاتها علي الشجرة الماضية والشجرة المقبلة، إنها أبدية الشجرة. ونحن بني الإنسان نحن حبوب شجرة الإنسانية. ويحمل الإنسان في داخله كل العالم المحيط به ويمدّن كل ما يعالجه بثقافته.^(٢)

ويعترض أونامونو علي فكرة أن التقدم يأخذ خطأ مستقيماً ويتضمن سلسلة من التموجات الصاعدة أبداً. بينما التقدم عند أونامونو يتضمن سلسلة من " الانتشارات والتكاثفات الكيفية، إنه إثراء الوسط الاجتماعي بمركب يتكاثف ويتركز فيما بعد، عن طريق التنظيم والنزول إلى الاعماق السرمدية للإنسانية، والتمهيد بذلك لتقدم جديد. نعم، إن التقدم توال من البذور والأشجار، وكل بذرة أحسن من السابقة عليها، وكل شجرة أغني من سالفها. والطبيعة، بسلسلة من الانتشارات والتكاثفات، والتفاضلات والتكاملات، تنفذ في الروح، كما تنفذ الروح في الطبيعة. والمدنّيات أرحام لمدنّيات مقبلة تتكون فيها كالأجنة ثم تولد كمدنّيات جديدة " .^(٣)

(١) المرجع السابق ص ١٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٢ .

(٣) د - عبد الرحمن بدوي - دراسات في الفلسفة الوجودية ص ١٨٣ .

ويذهب أونامونا إلى القول بأن المدنية تتحلل، ولكن تحمل عناصرها المنفصلة في الوقت نفسه طاقة أغني من تلك التي نجم عنها التحليل. أو لم يحمل رجال فجر العصر الوسيط، وأبناء انحلال الامبراطورية الرومانية، خلود روما في نفوسهم؟

وليس قليلاً أن تزيد عناصر العالم عنصراً، ولو واحداً. ذلك لأن العدد المتزايد من التراكيب التي يسمح بها هذا العنصر الجديد يمكن من إيجاد عالم أفضل ولا سبيل إلى إيجاد تركيبات جديدة إلا بشرط تحطم التركيبات القديمة. تلك النظرة هي نظرة آليه يعترض عليها أونامونو ويقوم بطرح نظرة مختلفة تمثل في أن العالم إذا ما حقق كل محتواه الممكن، وأصبح تراباً فإن من الواجب أن نعتقد أن كل جزئ من هذا التراب، وكأنه ذرة أحادية كاملة، يحمل في داخله كل العالم القديم والعالم الجديد.^(١)

وهذا يعني أن هناك إنساناً جديداً يحمل علي عاتقه مسئولية " التجديد الشامل للإنسانية جمعاء، لأن الإنسانية ستقتني روحه، إن ذلك بمثابة درجة جديدة في السلم الشاق المؤدي بالإنسانية إلي ما فوق الإنسانية. وكل المدنيات مهمتها أن تنشئ حضارات، والحضارات مهمتها أن تنتج أناساً، وإيجاد الناس (بالمعنى الكامل) هو الغاية من المدنية، والاتساق هو الناتج الأعلى للإنسانية والواقعة السرمدية في التاريخ. وما أحمل أن ينبثق من بقايا المدنية إنسان جديد، إن الإنسان الجديد معناه المدنية الجديدة ".^(٢)

وهناك حقيقة ينبغي أن نلفت النظر إليها ألا وهي أن أونامونو قد كتب مثل هذه الأفكار في مطلع القرن العشرين. وأن الفلسفة السائدة حينئذ هي فلسفة التطور، وهذا يعني أن هناك مسئولية ينبغي أن يدافع عنها أصحاب الرؤية الإنسانية. وإحداث " ثورة جذرية في الإنسانية كان هو الرجاء الأكبر عند المفكرين في نهاية القرن الماضي حين سادت فلسفة نيتشه في الإنسان الأعلى، وصنع ابسن شخصية (براند) وانتشرت المذاهب الاجتماعية الداعية إلى بناء مجتمع جديد علي أنقاض المجتمع البورجوازي المسيطر آنذاك، وتنازع موقف الإنسان اتجاهان قويان متعارضان في إدراكهما لمعاني الحرية والتقدم والمستوي الواجب للإنسانية".^(٣)

(١) المرجع السابق ص ١٨٣، ١٨٤ .

(٢) د - عبد الرحمن بدوي - دراسات في الفلسفة الوجودية ص ١٨٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٨٥ .

ومما لا شك فيه أن أو نامونو كان من المدافعين بقوة عن القيم الإنسانية الرفيعة. ولم يكن يهتم إلا بما هو عيني، حيث إنه لم يكن يهتم بالإنسانية، وإنما يهتم بالإنسان العيني، المكون من لحم وعظم، الإنسان الذي يولد وينام ويموت ويأكل ويشرب ويلعب وينام ويفكر ويتمني، الإنسان الذي يري ويسمع. (١)

يوضح أو نامونو أنه لا يثق في صفة (إنساني) ولا في كلمة الإنسانية، ولكن يثق فقط في الاسم الملموس (الإنسان) وليس الإنسان الاقتصادي، ولا حتى الجنس البشري العاقل، ولا الإنسان المثالي فهو ليس بإنسان، ولكن الإنسان العيني الموجود الحي المؤلف من لحم وعظم، والذي يموت. هذا الإنسان وصراعه ضد الموت أو حزنه علي الموت، ذلك هو اهتمامه الوحيد. (٢)

وهكذا نجد أن أو نامونو لديه قناعة تامة بأهمية الإنسان، وأن كل ما يحدث في الوجود لا يخرج عن كونه في خدمة الإنسان، وأن أي تقدم يحدث لا يتم بمعزل عن الإنسان. وهنا يطرح سؤال نفسه كيف يحدث التقدم نجد أن " تقدم الجنس البشري يرجع إلى الناس، ومن توالى الناس بعضهم وراء بعض، وبعضهم مختلف عن بعض، وأن العالم لا ينقاد بالأفكار ولا بالعواطف بل بالناس، الناس بأفكارهم وعواطفهم وفعالهم ". (٣)

وإنطلاقاً من فلسفته الإنسانية فإنه يري أن هناك إمتزاجاً بين الأفكار وبين الإنسان لأن " الأفكار لا تولد غير الأفكار، والناس لا يولدون غير الناس، وأن كانت الأفكار لا يمكن أن تولد الأفكار إلا بواسطة الناس، والناس لا يمكنهم أن يصنعوا أناساً بمعني الكلمة إلا بواسطة الأفكار ". (٤)

والتفكير والكينونة مرتبطان ببعضهما علي نحو لا فكاك منه برباط قوي إلى الحد الذي إذا حاول معه أي فرد الفصل بينهما فإنه لن يحرفهما فقط وإنما ينكر إنسانيته الخاصة باعتباره الإنسان الذي يتكون من لحم وعظم.

(١) المرجع السابق ص ١٨٦.

(٢) Unamuno, Migel De : Abel sanchez and other stories , Translated and with an Introduction by Anthony Kerrigan A Gateway Edition , Henzy Regnery company chicaco , 1956 , p,4.

(٣) د - عبد الرحمن بدوي - دراسات في الفلسفة الوجودية ص ١٨٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٨٩.

الإنسان المولود الذي يعاني ويموت، وفوق كل ذلك الذي يموت، الذي يأكل ويشرب ويلعب وينام ويفكر ويحب^(١).

وهكذا يؤكد أونامونو علي قيمة الإنسان وتفردته وأن كل إنسان بمعناه الفردي يحمل الإنسانية بداخله، وأن الإنسان هو الذي يحمل الأفكار وليس العكس" والأشخاص لا الأفكار، هم الذين يقودون الناس والعالم. وهذا هو الذي يفسر نسبة المذاهب إلى أشخاص، لا إلى معان وأفكار".^(٢)

^{١)} Unamuno Migel De , The Private world , selections ,from the Diario In time and selected letters 1890 – 1936 Translated by Anthony Kerrigan , Allen Lacy and Martin Nozich , Bollingan series Ixxxx.2 princeton university press , p , ix.

^{٢)} د - عبد الرحمن بدوي - دراسات في الفلسفة الوجودية ص ١٩٠ .

الفصل الثاني : إنسانية الفلسفة

أولاً : من هو الإنسان ؟

ثانياً : الإنسان والفلسفة

ثالثاً : إنسانية الحب

الفصل الثاني

إنسانية الفلسفة

أولاً : من هو الإنسان ؟

إن الإنسان بمعناه المجرد لا يهتم به أو نامونو من قريب أو من بعيد، لأن ذلك لا يخرج عن كونه تديداً لطاقة الإنسان فيما هو غير واقعي ولا نجني منه سوي التشتت الذي لا نجني من ورائه شيئاً. وإنما الإنسان الذي يقصده أو نامونو " إنه الإنسان بلحمه وعظمه، وإنه الإنسان الذي يولد ويتألم ويموت، وإنه الإنسان الذي يأكل ويشرب ويلعب ويحب وينام ويفكر، وإنه الإنسان الحقيقي الذي نحاوره ونتعايش معه ".^(١)

إن الإنسان الذي يتناوله أو نامونو هو الإنسان الملتصق بالحياة المتفاعل معها المندمج فيها. إن الإنسان هو الإنسان الآخر المتواجد أمامنا الذي يتعامل معنا وتتعامل معه، ويشعر بنا ونشعر به، هو أنا وانت، وهو ذلك الآخر القريب منا والبعيد عنا. إنه الإنسان المعين. وهو الذات والموضوع الاسمي في أن واحد لكل فلسفة، سواء وافق علي ذلك أو لم يوافق بعض مدعي الفلسفة.^(٢)

إن الأسبقية ليست للأفكار، وإذا طبقنا ذلك علي التفاؤل والتشاؤم نجد أن أفكارنا ليست هي المسئولة عن تفاؤلنا أو تشاؤمنا وإنما تفاؤلنا أو تشاؤمنا يشكل أفكارنا. وإن الإنسان دائماً ما يتم وصفه بالعقل. وهنا نجد أو نامونو يتساءل : لماذا لم يتم وصف الإنسان بأنه عاطفي أو ذو حساسية؟ ولعل ما يميز الإنسان عن الحيوان هو الشعور وتلك الصفة هي أكثر وضوحاً عن العقل بمعنى آخر إن الشعور وليس العقل

هو ما يميز الإنسان ويجعله متفرداً عن الكائنات الحية الأخرى.^(٣)

نحن لا نجد مبرراً لهذا الموقف المتطرف من قبل أو نامونو للدفاع عما يؤمن به ويدافع عنه إلا وهي أسبقية الشعور والعاطفة علي العقل. ونجد من

¹⁾ Unamuno Migel De , Tragic sense of life , Translator J.E Crawford Flitch , Macmillan and co, limited st , Martin's Street , London ,1921 ,P1.

قارن أيضاً : ميجيل دي أو نامونو - الشعور المأساوي بالحياة - ترجمة : علي ابراهيم اشقر - منشورات وزارة الثقافة - دمشق - ٢٠٠٥ ص ٩

²⁾ Ibid.PP,1,2

المرجع السابق ص ١٠

³⁾ Unamuno Migel De , Tragic sense of life ,p,2.

قارن أيضاً : ميجيل دي أو نامونو - الشعور المأساوي بالحياة ص ١١ .

الفلاسفة من ذهب إلى أن العقل عبد العواطف ، نجد ذلك عند هيوم، وذلك في سياق مختلف تماماً عما نتناوله عند أونامونو. ولكننا نجد أن موقف أونامونو من العقل كان يجب أن يكون أقل حدة. وحتى يكون ذلك واضحاً نجد أن هيوم علي الرغم من أنه وضع العقل في مرتبة تالية للعواطف، فإن موقفه لم يكن متشدداً كما نجد ذلك عند أونامونو. فنجد هيوم يذهب إلى القول بأن " العاطفة تعلن عن نفسها لكي ترشد إلى المفيد النافع.. هذه العاطفة لا يمكن أن تكون غير الشعور نحو سعادة الجنس البشري.. بينما العقل يميز بين الضار والمفيد ".^(١)

وعن العقل عند هيوم فإنه عاجز عن توليد أي فعل، ومن ثم فهو عاجز كذلك عن التصدي للفعل الإرادي.. ومن ثم فحن نتحدث اعتباطاً عندما نعرض لصراع قائم بين العقل والعاطفة، وإنما العقل عبد للعواطف، وليس في طوقه أن يقوم بعمل اخري اللهم ان يقوم علي خدمة العواطف وطاعتها.^(٢)

عند تناولنا لموقف هيوم من العقل - وإن كان في سياق مختلف - لم نجد أن هجومه كان متشدداً كما نجده عند أونامونو، ولقد وجدنا هذا التشدد واضحاً عند أونامونو - كما اشرنا سابقاً - عندما ذهب إلى القول بأن ما يميز الإنسان عن الحيوان ليس العقل وإنما هو الشعور والعاطفة. ونحن نري أن ذلك يعد تطرفاً من قبل أونامونو لا نجد له مبرراً. ولقد وجدنا هيوم يدافع عن العاطفة ولكنه يضع العقل في مرتبة تالية. إن إهتمام أونامونو بالإنسان المعين، ذلك الإنسان الذي يتعامل معه من خلال لحمه وعظمته. ذلك الإنسان صاحب الشعور والإرادة وليس الإنسان المجرد ، ولذلك نجد أن الإله العقلاني يعد إسقاطاً لا متناهياً من خارج الإنسان المجرد، بينما إله الشعور والإرادة يعد إسقاطاً لا متناهياً من داخل الإنسان الحي، ذلك الإنسان الذي يدافع عنه أونامونو.^(٣)

وهنا نجد أونامونو يتناول فيلسوفاً متميزاً ذا تأثير بالغ على الفلسفة ألا وهو كانط. وعلي الرغم من فلسفته العقلية وجد أن فلسفته العقلية قد تنتهي به إلى رفض الإرادة الحرة وخلود النفس ووجود الله. وهنا يتغلب كانط الإنسان ويذهب إلى أن الحرية " قوام التكليف، إذ لا يسأل عن أفعاله من افتقد حرية إختيارها، وإذا كان أداء الواجب يببرر إسعاد صاحبه فإن الحياة الدنيا أقصر من أن تتسع لتحقيق السعادة الكاملة، ومن هنا لزم التسليم بخلود النفس والعدالة

^١) Hume ,D, Enquiries ,concerning Human understanding and concerning The principles of Morals , third edition - clarendon press , oxford, 1975 , p 285.

^٢ د. محمد فتحي الشنيطي - فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد - مكتبة القاهرة الحديثة - ١٩٥٧ ص ٢٥١.

^٣) Unamuno Migle De , Tragic sense of life , P,4.

قارن أيضاً : ميغيل دي اونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١٢ .

تقتضي أن توزع السعادة علي الناس بمقدار حظهم من أداء الواجب، وضمن هذا إنما يكون بوجود الله".^(١)

ولقد ذهب الإنسان كانط بأن الأخلاق أساس علم الآخرة، ولكنه قلب المصطلحات. وهناك من يذهب إلى القول بأن الله عند عامة الناس هو المسئول عن الخلود. ويتفق مع نظرة عامة الناس في أن الخلود يحتم وجود الله وكذلك يتفق معهم الإنسان كانط والإنسان جيمس والإنسان أونامونو.^(٢)

ونعضد موقف أونامونو عن الإنسان جيمس وهو يستشهد بالإنسان كانط بأن هناك أشياء يجب ألا تكون موضوعات معرفة. في هذا الصدد يذهب جيمس إلى أن " كانط استحوذ علي مذهب نادر في موضوعات الاعتقاد بالله، وخلق العالم، والروح، والحرية، والحياة الأخرى ويذهب إلى أن هذه الأشياء يجب ألا تكون موضوعات معرفة. تصور أننا نحتاج دائماً إلى شعور كافي للعمل وكلمات الروح والله والخلود هذه الكلمات خالية من أي معنى. ومع ذلك تحتوي علي معنى ثابت لتجربتنا. نحن نستطيع العمل إذا وجد إله ونشعر أننا أحرار، وإذا تأملنا في الطبيعة نجد نظاماً خالداً، ونجد أن هذه الكلمات تحدث اختلافاً حقيقياً في حياتنا الأخلاقية " ^(٣).

وفي هذا الإطار يذهب جيمس كولتير إلى أن المناسبة التي عجلت باعتقاد وليم جيمس بالألوهية لم تكن حجة ميتافيزيقية بل هي أزمة شخصية وأخلاقية.^(٤)

نحن بدورنا نتفق مع ما يذهب إليه جيمس كولتير بأن اعتقاد وليم جيمس بالألوهية يتمثل في أزمة شخصية وأخلاقية. يبدو ذلك جلياً من قلق وليم جيمس علي مصير العالم وهو إنسان محب للخلود، وأن العلم لا يعترف بذلك الخلود، لأن " التحطيم النهائي المطلق والمأساة هما من جوهر المادية العلمية".^(٥)

وهنا يأخذ وليم جيمس موقفاً من العلم مع إيمانه التام بالعلم ودفاعه عن الإنجازات التي حققها العلم. ولكن عندما يتعارض موقف العلم مع موقف

(١) د. توفيق الطويل - اسس الفلسفة - الطبعة السادسة - ١٩٧٦ ص ١٨٠.

(٢) Unamuno Migue De , Tragic sense of life , P,5.

قارن ايضاً : ميغيل دي اونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١٣ ، ١٤ .

(٣) James ,w, The Varieties of Religious Experience , Longmans Green and co , 1909 ,PP,54,55.

(٤) جيمس كولتير - الله في الفلسفة الحديثة - ترجمة فواد كامل - مكتبة غريب - ١٩٧٣ ص ٤٢٠.

(٥) James , W, Pragmatism , Longmans , Green and co , 1949 , P ,105.

جيمس الإنسان، فإن جيمس يأخذ موقفاً معضداً لموقف جيمس الإنسان. انظر مثلاً ماذا يقول جيمس الإنسان، نجده يذهب إلى القول " بأن الحاجة إلى نظام خلقي سرمدى، هي واحدة من أعمق حاجات صميم فؤادنا ".^(١)

ويحاول أونامونو دائماً أن يؤكد علي إنسانية الإنسان وتفردده، مهما كان يتعرض لمصائب وكوارث تحقق به من كل صوب. فقد قال صديق أونامونو في حوار معه أنا ارغب في أن أكون فلاناً. مثل هذه الرغبة أصابت وأنامونو بالدوار. لأن شخصاً يريد أن يكون شخصاً آخر، فهذا يعني أنه يتخلي عن أن يكون هو هو. من الممكن أن نفهم أن يرغب شخص ما في أن يملك ما لدي شخص آخر، مثل ثروته أو معارفه، لكن أن يكون شخص آخر فهذا شئ من الصعوبة أن نفهمه. لقد حدث كثيراً أن الإنسان التعميس يرغب في أن يكون هو هو مع تعاسته، على أن يكون آخر من غير هذه التعاسة. إذا طلب من شخص أن يكون شخصاً آخر، فإن ذلك يعني تخليه عن هويته. إن كان إنساناً يدافع عن شخصيته ولا يقبل تغييراً في طريقة تفكيره أو شعوره إلا إذا كان هذا التغيير يتسق مع سائر طرق وجوده وتفكيره وشعوره ويرتبط بذكرياته في أن واحد. من المستحيل أن نطلب من إنسان أن يتغير، لأن هذا التغيير قد يقطع وحدته واستمرار شخصيته. من الممكن أن يتغير الإنسان كثيراً، أو حتي يتغير تغيراً كاملاً، لكن يتم ذلك ضمن الاستمرارية المتسقة مع شخصيته.^(٢)

مما لا شك فيه يوجد لدي بعض الافراد ما نستطيع أن نطلق عليه تغيراً في الشخصية، لكن في مثل هذه الحالة يتم التعامل معها علي أنها حالة مرضية، ونحاول قدر استطاعتنا أن نجد علاجاً لها. لأن التغييرات التي تحدث في الشخصية تعني أن الذاكرة قد أصابها خلل ترتب عليه فقدان الذاكرة وهي أساس الشخصية. وهذا يعني الموت عند الشخص الذي يعانیه... لأن كل من شأنه أن يقطع وحدتي واستمراريتي، فإن ذلك يعني تحطيمي تماماً. لأن تحطيم الشخصية هي والعدم سواء.^(٣)

^{١)} Ibid , p , 106.

^{٢)} Unamuno , Migne De , Tragic sense of life , PP,9 , 10.

قارن ايضاً : ميغيل دي اونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١٩

^{٣)} Loc-cit.

المشكلة الأساسية في الفلسفة هي المعرفة الخاصة بالشخصية الإنسانية، وأن كل تفكير مبدع هو بالضرورة شخصي، وأن فلسفة جيمس الإنسان لا يمكن فصلها عن شخصيته. (١)

والفلسفة التي يبتدعها الشخص أو يعتنقها تعتمد علي طابع شخصيته. وأن تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين الأمزجة الإنسانية. (٢)

وهنا يطرح أونامونو تساؤلاً : هل من الممكن أن يقوم أحد بدوري خير مني أو مثلي أو يؤدي وظيفتي الاجتماعية ؟ نجد أن الإجابة نعم، ولكن في هذه الحالة ليس هو أنا ذاتي. وهنا يستشهد أونامونو بمذهب الإنسان كانط الذي يذهب إلى القول بأنه يجب علينا أن ننظر إلى غيرنا لا بكونهم وسائل وإنما كغايات. مثل هذا الأمر لا يعنيني وحدي، بل يعني الجميع، ويعني كل واحد منا. يذهب المناطقة إلى القول بأن الفردية لها قيمة عالمية. لأن الفردي ليس خاصاً وإنما هو عالمي. (٣)

تتفق أديان التوحيد علي أن نفساً بشرية واحدة تساوي الإنسانية بأكملها. وأنه عندما يحدث زعزعة فيما يتعلق بإيماننا بالنفس أي بخلودها الواعي والشخصي المعين، يزداد اهتمامنا بقيمة الحياة البائسة العارضة.. وأن الإنسان عندما يؤكد ذاته ووعيه الشخصي، يعني ذلك أنه يؤكد علي الإنسان المعين الحقيقي. إنها الإنسانية الحقيقية، إنها إنسانية الإنسان. وعندما نؤكد علي الإنسان فإننا نؤكد علي الوعي. لأن الوعي الوحيد الذي نملك وعياً به، هو وعي الإنسان. (٤)

إذا افتقد فيلسوف إنسانيته، فهو في هذه الحالة من الممكن أن يكون كل شيء إلا أن يكون فيلسوفاً، ولكن من الممكن وصفه بأنه ليس إنساناً ولكنه تقليد إنسان. إن ممارستنا لأي علم من العلوم سواء كان كيمياء أو فيزياء أو هندسة، فإنه يعد عملاً تخصصياً متفرقاً، لكن الفلسفة فإنها إما أن تكون عملاً تكاملياً متناغماً أو فلسفة مزيفة. (٥)

(١) دافيد.مارسيل - فلسفة التقدم - ترجمة د. خالد المنصوري - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٧٨ ص ١٠٣.

(٢) Harry, k, wells – pragmatism – International Publishers, 1954,p,103.

(٣) Unamuno Migle De , Tragic sense of life , P,11.

قارن أيضاً : ميجيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢١.

(٤) Ibid , P,13.

المرجع السابق ص ٢٣.

(٥) Ibid , P,15

المرجع السابق ص ٢٦.

إن العقل الخالص يعجز عن تلبية اهتمامنا الأسمى، بل لابد أن يكون عاطفياً. إن التفكير في المصير، ينبغي لنا أن نشعر به. ومن يطمع في قيادته أشباهه من البشر ويعلن أنه لا يهتم بالقضايا السماوية، فإنه لا يستحق أن يقودهم. (١)

ويوجد اتفاق بين برديائف وبين ما يذهب إليه أونامونو في وصفهما للفيلسوف غير المؤمن بأن تجربته ضيقه، ومعرفته جدباء، وأنه يحيا منغلقاً. انظر مثلاً ماذا يقول الإنسان برديائف " أستطيع أن أذكر كيف استبدت بي فجأة في يوم من أيام الصيف، قبل بزوغ الفجر، قوة عاصفة وكأنها تنتزعني انتزاعاً من ذلك الأسر الغامض الذي اسلمت إليه حالتي القانطة، وغمر النور كياني. وعلمت حينئذ أنه نداء للإبداع. ومن الآن فصاعداً سوف أبدع من حرية روعي كما فعل الصانع العظيم الذي أحمل صورته بين جوانحي ". (٢)

ويذهب الإنسان برديائف أيضاً إلى القول : بأنه في حالة عدم وجود إله، فأنا عبد لهذا العالم. فيعتبر وجود الإله هو ضمان لاستقلالنا عن العالم والمجتمع والدولة. (٣)

وإنفاقاً مع ما يذهب إليه أونامونو فنجده يذهب إلى القول بأننا نستطيع أن نصل إلى حلول كثيرة للأشياء إذا خرجنا جميعاً إلى الشارع، وعرضنا في النور الأمانا التي قد تبدو أليماً واحداً مشتركاً وأن نتوجه جميعاً ونبكي معاً ونخلص إلى الله بالدعاء، وحتى إن اعرض عنا فإنه سوف يسمعنا. وأقدس ما في المعبد هو أنه مكان نسعي إليه للبكاء معاً. (٤)

ويذهب أونامونو إلى أن البشر وجد بينهم من هم لحم وعظم، وهؤلاء كانوا يمتلكون شعوراً مأسوياً بالحياة. ويتذكر منهم علي سبيل المثال ماركوس أوربليوس، والقديس أوغسطين، وروسو، ورينه، وكيننتال، وكيركجور، إنهم اناس تملكهم الحكمة أكثر من العلم. وقد نجد معارضاً لهؤلاء بوصفهم أنهم اتخذوا مثل هذه المواقف لجذب الانتباه أو لينالوا رضى الأقوياء. ومن هنا نجد موقف أونامونو القاسي إزاء هؤلاء بأن وصفهم بأنهم اخس الناس لاقتراضهم نوايا غير حسنة. (٥)

¹) Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P,16.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢٦، ٢٧. (٢) نيقولاوي برديائف - الحلم والواقع - ترجمة فؤاد كامل - مراجعة علي ادهم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٤ ص ٢١٣.

³) Berdyaev , N, The Divine AND The Human , Trans By R.M. French , Geoffrey Bles London , p, 136.

⁴) Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P,17.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢٨.

⁵) Ibid , P,18.

ثانياً : الإنسان والفلسفة

إن الإنسانية عندما بدأت المعرفة أدركت تماماً أن المعرفة هي من أجل العيش، ثم بعد ذلك وجدنا المعرفة التي يمكن أن نسميها معرفة ترف تقوم هي الأخرى بتلبية مطالب أو حاجات جديدة. والرغبة في المعرفة إذن في البداية ترتبط بشكل مباشر من أجل تلبية الحاجات الضرورية التي ينسب لها إشباع الحاجات الملحة ألا وهي الحاجة أن يعيش الإنسان أولاً ثم بعد ذلك يتم إشباع الرغبة الفطرية في المعرفة ألا وهي المعرفة التي تتعلق بما أطلقنا عليه معرفة الترف. وإذا نظرنا إلى العلم وجدناه أكثر توجهها إلى المعرفة من أجل المعرفة، لكن ضرورات الحياة ترغمه علي أن يكون في خدمتها. وإذا كانت الإنسانية يقع في ظلها أنها تبحث عن الحقيقة من أجل الحقيقة ذاتها، لكن في الحقيقة هم يبحثون عن الحياة الحقيقية. (١)

إذن المعرفة يتم تسخيرها من أجل أن تهيب الظروف لكي يتسنى للإنسان العيش، وهي بذلك تعد في خدمة غريزة حفظ الحياة للأشخاص. ومثل هذه الحاجة، وهذه الغريزة أوجدت لدى الإنسان أعضاء المعرفة، لأن الإنسان عندما يري ويسمع ويلمس ويتذوق ويشم كل هذا من أجل المحافظة علي حياته. وأن أي خلل في حاسة من الحواس قد تعرض حياته للخطر. ولكن وجود الإنسان في المجتمع قد يقلل من هذه المخاطر. والحيوان في الظلام الكامل إن لم تنتهي حياته يصبح أعمي والطفليات التي تعيش في أحشاء الحيوانات العليا ولا تسمع لأنها ليست في حاجة إلى ذلك، طالماً يوجد من يري ويسمع نيابة عنها ألا وهم الذين يمدونها بالغذاء في أحشائهم. (٢)

وهكذا نجد أن الإنسان لا يعيش وحيداً أو منعزلاً ولكن يحيا كعضو داخل المجتمع. وهناك منفعة أو مصلحة متبادلة ما بين الفرد والمجتمع الذي يحيا في كنفه فكلاهما في حاجة ضرورية إلى الأخر، لأن الفرد إذا كان يحيا بفضل غريزة الحفاظ علي الحياة، كذلك فإن وجود المجتمع واستمراره يرتبط بشكل مباشر بغريزة حب البقاء عند الأفراد. ومن هذه الغريزة أو من خلال

١) Unamuno Migue De , Tragic sense of life , PP,22,23.

قارن أيضاً : ميغيل دي اونامونو - الشعور المأساوي بالحياة ص ٣٥.

٢) Ibid , P,23.

المرجع السابق ص ٣٦.

المجتمع ينشأ العقل، إذن العقل أو ما نسميه عقلاً هو في النهاية لا يخرج عن كونه ثمرة اجتماعية. (١)

وأتساقاً مع هذا نجد أن المجتمع الإنساني متغير غير ثابت، وفي المقابل نجد أن المجتمع الحيواني ثابت لا يتغير. والواجب أقرب إلى أن يكون ضرورة من الضرورات، وهو بهذا يقترب من الغريزة. ولكن من الخطأ الجسيم أن نرجع الواجب إلى الغريزة " لأن المفترض قوله علي الدوام أنه ليس هناك واجب غريزي في مضمونه، وأن مجموع الواجب كان يمكن أن يكون غريزياً في المجتمعات الإنسانية لولا وجود عقل وإمكانية للتغيير ". (٢)

فإذا كان للعقل دوراً رئيساً في تقدم الإنسانية، فإن العقل يرتبط ارتباطاً مباشراً باللغة. فنحن لا نستطيع إغفال أو تجاهل دور اللغة وأهميتها في نقل ما نفكر فيه إلى غيرنا. فنحن نفكر بوضوح بفضل اللغة المنطوقة. وأن التفكير هو بمثابة حديث النفس للنفس. والإنسان يتكلم مع ذاته كما نتكلم مع بعضنا بعضاً. وما يهم الإنسان هو نقل ما يفكر فيه إلى الآخرين ولن يتم ذلك بمعزل عن اللغة. إذن التفكير هو لغة داخلية، وتلك اللغة الداخلية تتبع من الخارج، ومن هنا يتضح تماماً دور العقل المجتمعي، وكذلك دور اللغة المباشرة في نقل الأفكار إلى الآخرين التي بدونها أي اللغة لم يصبح للفكر دوراً مؤثراً ومباشراً. (٣)

وهكذا نجد أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين اللغة والفكر، انطلاقاً من أن اللغة هي التي يتم من خلالها تقديم الفكر. صحيح أن هناك أفكاراً ووجدانات نقوم بالتعبير عنها بوسائل متعددة من قبيل الألحان في الموسيقي أو المجسمات في النحت، أو الألوان والخطوط في الرسم أو غير ذلك. ولكن علي الرغم من ذلك ستظل اللغة أكثر صدقاً وشمولية ودقة في التعبير عما يدور في خلد الإنسان من أفكار أو وجدانات. (٤)

وإذا كنا قد اشرنا إلى ان الطفيليات التي تعيش في احشاء الحيوانات العليا لا تري ولا تسمع لأنها ليست في حاجة إلى ذلك طالما أن هناك من يقوم

¹⁾ Unamuno Migne De , Tragic sense of life , PP,24,25.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٣٧.

^{٢)} د. مراد وهبه - المذهب في فلسفة برجسون - مكتبة الانجلو المصرية - دار وهدان للطباعة والنشر - الطبعة الثانية - ١٩٧٨ ص ٩٤.

³⁾ Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P,25.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٣٧، ٣٨.

^{٤)} د. عزمي اسلام - مفهوم المعنى دراسة تحليلية - جامعة الكويت - حوليات كلية الآداب - الحولية السادسة ١٩٨٥ ص ١٨.

نيابة عنها بهذا الدور. ولو افترضنا جدلاً - كما يذهب إلى ذلك أونامونو - انها تتمتع بوعي ما وأدركت أن الذي تعيش في حشاة يعنقد بوجود عالم آخر، ربما اعتبرت ذلك شططاً في الخيال. كذلك توجد طفيليات اجتماعية تأخذ من المجتمع سلوكها الخلفي، ولا تعترف بوجود الله أو بحياة أخرى، ولأنهم كائنات طفيلية يعيشون علي العصارات الروحية التي أعدها لهم المجتمع^(١).

وهكذا نجد أن هناك تداخلاً بين ما هو فردي وبين ما هو اجتماعي بشكل لا انفصال فيه. وإذا كنا قد تناولنا اللغة ودورها في نقل الأفكار، وكذلك دور المجتمع وذلك فيما يتعلق بما هو روحي عند من ينكر الإيمان بالله، هنا جاء دور الفلسفة التي تمثل الوعاء الحقيقي لخلاصة الفكر الإنساني، ونسأل " لأي شئ نتفلسف؟ أي: لأي شئ نبحث عن مبادئ الأشياء الأولى وغاياتها الأخيرة؟ ولأشئ نبحث عن الحقيقة المجردة؟.. وما الهدف من الفلسفة عندما نقوم بعرض أفكارنا علي غيرنا؟ هل هو البحث عن الحقيقية من أجل الحقيقة نفسها؟ الحقيقة بهدف اخضاع سلوكنا لها، ونحدد بذلك طبقاً لها موقفنا الروحي من الحياة والعالم".^(٢)

ومما لا شك فيه أن الفلسفة هي إبداع انساني من قبل كل فيلسوف، وكل فيلسوف هو في النهاية " إنسان بلحمه وعظمة يتجه إلى أناس آخرون بلحمهم وعظمتهم. ليتفلسف من أراد أن يتفلسف ليس بالعقل وحده وإنما بالإرادة وبالإحساس وبلحمه وعظمة وبروحه كلها وبجسمه كله، وبالإنسان فليتفلسف".^(٣)

واتساقاً مع فلسفة أونامونو نجده يرفض بشكل قاطع، المعرفة من أجل المعرفة، والحقيقة من أجل الحقيقة، لأن ذلك يعني فصل المعرفة والحقيقة عما هو في خدمة الإنسان. وأونامونو لديه قناعة تامة أن كل ما هو إنساني يكون في خدمة الإنسان مهما كانت الحجج والمبررات "وإذا قلنا أن الفلسفة النظرية تتجه إلى الفلسفة العملية، والحقيقة تتجه إلى الخير والعلم يتجه إلى الأخلاق، أقول: والخير لأي شئ يتجه؟ هل هو غاية في ذاته؟.. إن الخير يتجه إلى الإنسان، وإلى صوب المجتمع البشري المكون من أفراد والسير به إلى الكمال".^(٤)

¹⁾ Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P,26,27.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٣٩، ٤٠.

²⁾ Ibid , P,28.

المرجع السابق ص ٤١.

³⁾ Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P 28.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٤١.

⁴⁾ Ibid , P,29.

المرجع السابق ص ٤٢.

إن البداية الحقيقية العملية وليست النظرية هي نقطة الانطلاق الحقيقية عند كل فيلسوف. ان أونامونو - كما أشرنا سابقاً - يرفض تماماً أن هناك معرفة من أجل المعرفة أو فلسفة من أجل الفلسفة، ولكنه يريد معرفة عملية أو فلسفة عملية حتي يتم التفاعل معها. إن كل ما يقوم الفيلسوف عليه أن يبتعد تماماً عما هو نظري إذا أراد أن يظل إنساناً " وإذا كان الفيلسوف انساناً قبل أن يكون فيلسوفاً، فإنه بحاجة إلى ان يعيش. حتي يتسني له ان يتفلسف، وأنه في الواقع يتفلسف من أجل أن يعيش".^(١)

وهكذا نجد أن فلسفة أونامونو فلسفة إنسانية تحترم الإنسان وتذهب إلى أن كل ما هو موجود من أجل الإنسان، وكل شيء يستمد قيمته من الإنسان، وكل ما لا يهتم به الإنسان لا معني له ولا يوجد له قيمة علي الاطلاق. وأن الإنسان عندما يتفلسف فإنه يتفلسف بكل كيانه ويتهمك علي كل فلسفه لا تجعل نقطة البداية لديها الإنسان. فإن الإنسان كما يتناوله أونامونو هو سيد الخليقة ومن اجله يوجد كل شيء، وكل ما هو في الوجود موجود من أجل الإنسان. وأن كل تناول عقلي للألوهية لا يترتب عليه سوي التشتت والحيرة والشك والقلق " وإذا قمنا بتوجيه سؤال إلى من يحتكم إلى العقل أيهما يفضل أن يعرف الله أو الخلاص الأبدي، إن كان بالإمكان أن تفصل بينها في الواقع، لوجدنا إتساقاً مع منهجه، سنجد أنه يختار بلا تردد (معرفة الله) ".^(٢)

ليس بخفي علينا موقف أونامونو من المعرفة، لأنها ترتبط بما هو عقلي، وموقف أونامونو من العقل - كما أشرنا سابقاً - لا يؤدي إلى شيء لأن المعرفة الحقيقية ليست عقلية ولكنها ترتبط بالإرادة والإحساس، وبمعني أوضح ترتبط بالإنسان كله بروحه وجسمه " لأن الحياة شيء والمعرفة شيء آخر. وهناك اختلاف واضح بين الحياة والمعرفة. ويمكننا القول بأن كل ما هو حيوي متناقض للعقل، وليس فقط لا معقولاً. وكل ما هو عقلي علي النقيض تماماً مع الحياة. تلك هي جوهر المعني الأسيان للحياة ".^(٣)

ونجد أن هناك تقارباً بين وجودية أونامونو ووجودية جبريل مارسيل في أن كليهما ينتمي إلى الوجودية المؤمنة. وكان طبيعياً ان نجد تقارباً في

^{١)} Loc - cit.

الموضع نفسه.

^{٢)} Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P,33 .

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعور المأساوي بالحياة ص ٤٦ .

^{٣)} Ibid , P,34.

المرجع السابق ص ٤٨ .

موقفهما من المذهب العقلي، وإذا كنا قد أشرنا إلى موقف أونامونو من المذهب العقلي، فإننا نقوم بدورنا بالإشارة إلى موقف مارسيل من المذهب العقلي. فنجد مارسيل يذهب إلى القول بأن المذهب العقلي لا يساعدنا في حل مشاكل الوجود الإنساني، وأن محاولاته كلها مصيرها إلي الفشل، لأنها تفصل الوجود الإنساني عن واقعة العيني، وتضعه في ظل اطار موضوعي شاحب يقتصر إلى الحيوية والمرونة، ولا يتجاوب مع تجاربنا الذاتية المتدفقة الثرية لأن " الموقف العقلي الذي ينظر إلى الموضوعات الدينية على أنها مضيعة للوقت، ينصح الإنسانية بإهمال كل ما هو ديني ".^(١)

ويذهب مارسيل أيضاً إلى القول بأن الاتجاه العقلي يعجز عن فهم حقيقة ما يشعر به المتدين الذي يأخذ نقطة انطلاقه من التجربة الذاتية الباطنية. وبناء على ذلك فإن الاتجاه العقلي يذهب إلى القول بأنه " لم يعد في الامكان الاعتقاد في المعجزات أو تجسيد المسيح. والإنسان في عام ١٩٣٠ لا يمكن أن يقبل مبدأ بعث وإحياء الجسد ".^(٢)

ثالثاً : إنسانية الحب

يتناول أونامونو الحب من منطلق واقعي يلتصق فيه بالحياة ولا يتجاوز الواقع الفردي الإنساني. والحب من الكلمات التي تتعدد التعريفات بشأنها، وشأنها في ذلك شأن كل ما هو إنساني لا نستطيع أن نتفق على تعريف محدد بشكل قاطع. واتفقت الإنسانية على ألا نتفق، وفي هذا بعد إثراء لكل ما هو إنساني. فالحب عند أونامونو يحدث عندما " نتحد بالآخر، وذلك بهدف أن ننقسم. وعندما يحدث عناق أعمق فإنه لا يعني سوي تمزق أعمق. ولذة الحب الجنسي وما يترتب عليها لا تخرج عن كونها تشنج تناسلي، وهي إحساس بالانبعاث في الآخر. لأننا من خلال الآخر يتسنى لنا أن نبعث حتي يقدر لنا الخلود ".^(٣)

ومن التعريفات التي قيلت عن الحب أنه أنانية متبادلة. لأن الواقع يظهر أن كلا المحبين يسعي إلى امتلاك الآخر. ومن خلال الآخر يسعي إلى الاستمرار في البقاء. وأن كلا المحبين يمثل لذة مباشرة للآخر، واستمراره في

^١) Marcel ,G, Being and having j A Translation BY Kathorine Farrer of Etre et A voir -Printed by Robert Maclebose and company limits the university press,glasgrow,1949.P,179

^٢) Ibid , P,180 .

^٣) Unamuno Migle De , Tragic sense of life , P,133.

قارن ايضاً : ميغيل دي اونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١٦٩ .

البقاء بصورة غير مباشرة وبذلك ينطبق عليهما - أي كلا المحبين - بأنهما طاغيتان وعبدان، بمعنى أن كلاهما طاغية وعبد للآخر في آن واحد. ^(١)

وعندما تتعدد المعوقات التي تقف حجر عثرة إزاء المحبين يزداد تمسك كل منهما بالآخر، ويتضاعف لديهم الألم لإحساسهم بقلّة الحيلة في أن يحدث الحب بينهما بوضوح وحرية، وعندئذ يشفق كل منهما علي الآخر من أعماق قلبه. مثل هذه الشفقة المشتركة تتضمن بؤساً مشتركاً وسعادة مشتركة، يترتب عليهما اشتعال الحب بينهما أكثر، في هذه الحالة يجمعها الوجد ويحدث التلذذ بوجعهما. وأن مثل هذا الحب اليأس المتوجع، يجعلهم في ضيق ويسيطر عليهم اليأس في استحاله ان يجمع بينهما الحب في هذه الحياة. عندئذ لا يوجد امامهم سوي الأمل في عالم آخر، لا توجد فيه مثل هذه المعوقات. في هذا الوضع القائم الميؤس منه يتغلغل بداخلهما الأمل والإيمان بعالم آخر. ^(٢)

والإنسان لديه رغبة دفينه في أن يكون محبوباً أو بمعنى آخر أن يكون موضع الشفقة. ويحب الإنسان أيضاً أن يشاطره الآخرون في أحزانه وآلامه ويشاركوه الإحساس بها. وحب المرأة لا يعدو كونه حباً يصطبغ بالشفقة. فعندما تحب المرأة، فإن هذا الحب يعني أنها تحس بالألم الذي يعانیه المحب، فتستسلم للمحب. إذن جوهر الحب الروحي عند الإنسان هو الشفقة. الحب إذن اشفاق، وكلما ازداد الإشفاق، كلما زاد الحب. ^(٣)

إن الحب والشفقة عند أونا مونو وجهان لعملة واحدة ويفترنان ببعضهما البعض ولا يوجد انفصال بينهما. فالإنسان ينتقل من الحب أي من الشفقة علي نفسه من أنه لم يكن شيئاً قبل الولادة، كما أنه لم يكن شيئاً بعد الموت. ومن هنا فإن الشفقة أي الحب يجعلك تشفق أو تحب كل من يشبهك من إخوانك. وإن انتقلت بحبك بمن يشبهونك من البشر إلى كل ما هو حي، فلسوف تشفق عليهم ليس ذلك فقط، بل إن حبك أو شفقتك تنتقل أيضاً إلى كل ما ليس بحي لكنه يتصف بالوجود. فالنجمة البعيدة التي تتلألأ خلال الليل، سوف تنطفئ ذات يوم وتتحول إلى غبار وتتوقف عن البريق وعن الوجود. ^(٤)

^{١)} Ibid , P,134.

الموضع نفسه.

^{٢)} Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P,136.

قارن أيضاً : ميغيل دي اونا مونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١٧٢.

^{٣)} Ibid , P,137.

المرجع السابق ١٧٣.

^{٤)} Ibid , P, 138.

المرجع السابق ١٧٤.

وإذا كنا نحب أو نشفق علي كل شئ إنساني أو فوق إنساني، حي أو غير حي، يعني هذا أننا نحس بكل ذلك في داخلنا، ويأخذ في الوقت ذاته صفة التشخيص. لأن الحب يشخص كل ما يحب، ويشفق علي كل ما يحب. فنحن نحب كل ما يشبهنا ونشفق علي كل ما يشبهنا. وإذا كنا نحب أو نشفق علي النجمة البائسة التي ستختفي ذات يوم، لأن الحب أو الشفقة تجعلني أحس بأن فيها وعياً غامضاً إلى حد ما، يجعلها تعاني من أنها ستختفي ذات يوم. والوعي هو معرفة مشتركة وهو مشاركة في الإحساس، والمشاركة في الإحساس هي مشاركة في الوجد. (١)

إن الحب عند أونامونو من أهم ما يتصف به، هو أن يقوم بتشخيص من يحب، فإذا كان الحب كبير وحيوي، فإن الإنسان يحب كل شئ، ويحب الكل أي العالم. وإذا كان الإنسان يشخص كل ما يحب، فإن ذلك يعني أن العالم هو أيضاً شخص وله وعي. ووعي العالم هذا الذي يكتشفه الحب بتشخيصه كل ما يحب، ذلك هو ما نسميه الله. ولذا نجد أن النفس تحب الله، وتحس بأنه يحبها. (٢)

وهكذا نجد أن كل فلسفة إنسانية تزخر بحب جارف ليس له حدود لكل ما هو موجود سواء كان حياً أو غير حي. فإذا كانت النفس مليئة بكل هذا الحب الفياض فإنه يتسع ليشمل كل شئ. وهنا نجد أونامونو كما هو فيلسوف فهو أيضاً أديب وشاعر فاضلي علي فلسفته شئ من الشعر وحاول ان يقدم لنا الفلسفة كقصيدة جميلة متناغمة متكاملة. ولا يعد تجاوزاً أن يشعر فيلسوف بأن الحب يتضمن كل شئ. فالحب هو اللغة المشتركة بين الإنسانية التي تدعو إلى التآلف والمحبة والسلام. فدائماً تنادي الإنسانية بالحب ورغبتها الجارفة في أن يتضمن الحب كل شئ. صحيح انها دعوة قد تنهم بأنها غير واقعية، ولكن من حق الإنسانية أن تحلم، وبالعلم ومن خلال الحلم حققت الإنسانية الكثير.

ولذلك نجد أن موقف أونامونو من الفلسفة ودورها علي النقيض تماماً من موقف الفلسفة الوضعية - كما أشرنا سابقاً - لذا كانت الوضعية من وجهة نظر أونامونو قد جاءت بما يتناقض تماماً مع كونه روحياً، فإنه يبشر بعودة الروحانية. ونجد أن برجماتية وليم جيمس قد عضدت من الموقف الروحي. لأن

¹)Unamuno Migue De , Tragic sense of life , P,139.

قارن أيضاً: ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص١٧٥.

²) Loc-Cit.

المرجع السابق ص ١٧٦.

مذهب جيمس النفسي دعاه "إلى القول بوجود عقل فوق العقول البشرية هو جماع العقول الجزئية كلها".^(١)

لكن هناك تجربة شخصية تعرض لها جيمس جعلته علي الأقل يشعر بما يشعر به المؤمن بوجود الله. نجد ذلك في وصفه لتلك الليلة في " غابة الايرونونداك عندما تلي صفاة الانطباع التي ترك لنا عنها وصفاً في غاية الحيوية وهو لم يدع أنه شعر بالله وإنما فقط استطاع من ذلك الوقت فصاعداً أن يفهم كيف يشعر الناس إذا ما شعروا بالله فعلاً".^(٢)

وكذلك نجد مارسيل يذهب إلى القول بأن موت الإله في شعور نينثشه هو السبب في معاناة الإنسانية التي نشهدها الآن. وأن مثل هذه المصائب والكوارث التي ألمت بالإنسانية تجعل الإله باستطاعته أن يظهر مرة ثانية.^(٣)

ونجد مارسيل يكتب أيضاً في يومياته في ٥ ماس ١٩٢٩ " لم أعد أشك. تغمرني سعادة خارقة هذا الصباح. ولأول مرة يتسنى لي معايشة تجربة النعمة الإلهية".^(٤)

والإنسان عند أونامونو يسعى قدر استطاعته ليجعل العالم كله حياً ويمتلك روحاً. ولهذا السبب اكتشف الإنسان الله والمادة، والله والجوهر المادي يترددان دائماً بداخله. وأن الوعي يشعرا بوجودنا، ونرغب في الإحساس بوجود الآخر، وكل ما عدانا يمثل ذاتاً.^(٥)

وإذا كنا نمتلك وعباً، هل من الممكن في هذه الحالة أن يطرح سؤال نفسه ألا وهو. أليس هذا يؤكد وجود وعي اسمي؟ قطعاً يؤكد أونامونو علي وجود هذا الوعي الاسمي المتمثل في وجود الله. ولذلك سيظل الله يتذكرني بعد موتي. وإذا كان وعي يستمر لأن الله هو الذي يحفظه، أليس هذا وجوداً.^(٦)

^(١) أ. وولف - فلسفة المحدثين والمعاصرين - ترجمة د. ابو العلا العفيفي - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ ص ١٦٥.

^(٢) رالف بارتون بيري - أفكار وشخصية وليم جيمس - دار النهضة العربية - ١٩٦٥ ص ٣٦٧.

^(٣) Marcel, G, Home viator , Translated by Emma croufurd harper ,& Brother New York , 1962.P,156.

^(٤) Marcel, G, Being and Having – A translation by Katharine Farrer of Etre et A voir – Printed by Robert Machebose and company limited The University Press ,Gladgow , 1949,P,15.

^(٥) Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P,146.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١٨٣.

^(٦) Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P,149.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١٨٧.

ويقدم لنا أونامونو أدلة تعضد من وجه نظره، من خلال تجربة أحس بها ليس مرة واحدة بل مئات المرات " كلما قمت بنزّهه في غابة، يملكني شعوراً بأن أشجار البلوط تحس بوجودي، وأن كل ذلك بشكل غامض. ^(١)

ان الشيء الوحيد الذي يتصف بالوجود الحقيقي هو كل ما من شأنه ان يمتلك حساً ويعاني، ويشفق ويحب، ويرغب، إنه الوعي، وهو الشيء الوحيد والجوهري. ونحن في حاجة إلى الله ليضمن استمراريه الوعي. والحب يفقد وجوده إن لم يكن الله موجوداً. ويدعونا أونامونو في النهاية إلى التفرقة بين إله المنطق أو العقل وبين الله الحيوي القلبي المتمثل في الحب الاسمي. ^(٢)

¹⁾ Ibid , P, 150.

المرجع السابق ص ١٨٩.

²⁾ Ibid , PP, 145,155.

المرجع السابق ص ١٩٣.

الفصل الثالث : إنسانية الإيمان

أولاً : الإيمان والعقل

ثانياً : الإيمان بين الإله القلبي والإله العقلي

ثالثاً : الإيمان والرجاء

رابعاً : الإيمان والخلود

الفصل الثالث

إنسانية الإيمان

أولاً : الإيمان والعقل

إن التناقضات المأساوية، وصراع الضمير نتيجة أن العقل يهاجم والإيمان العاجز عن أن يصل إلى الشعور بالأمان من دون العقل، عندئذ يضطر الإيمان رغماً عنه إلى عقد ميثاق مع العقل. إننا بحاجة إلى يقين أو اطمئنان، وأن ذلك لا يحدث إلا بالتوافق مع مقتضيات العقل. وإن كان أوغسطين يذهب إلى القول بأن الإيمان يتقدم العقل، إن ذلك يعني أنه يريد الذهاب عبر الإيمان إلى العقل، يريد أن يؤمن ثم يتعقل هذا الإيمان.^(١)

وهكذا نجد ان أوغسطين يجعل الإيمان في الصدارة ثم بعد ذلك يأتي دور العقل. وفي الحقيقية نحن ليس بخفي علينا التأثير الذي تركه أوغسطين علي فلاسفة الغرب بشكل عام ولا سيما عند أوغستونو. ولذا نجد أن العقل عند أوغسطين " مهمة بعد الإيمان، هي تفهم العقائد الدينية. وهنا الإيمان سابق علي التعقل معين عليه، فإنه يطهر القلب، والعقل أقدر علي البحث وأسرع قبولاً للحق بحيث نقول (أمن كي تتعقل). " ^(٢)

وإذا تناولنا وجهة نظر سبينوزا سنجد وجهة نظره مغايرة تماماً بل نجد أنها علي النقيض تماماً من وجهة نظر أوغستونو . لأن سبينوزا يرى " أنه لا توجد أية صلة بين العقل والإيمان أو بين الفلسفة والدين، أو كما يقول هو بين العقل والفلسفة من ناحية وبين الإيمان واللاهوت من ناحية أخرى، إذ يقوم كل علم، سواء الفلسفة أو اللاهوت، علي مبادئ مختلفة إختلافاً جذرياً عن المبادئ التي يقوم عليها العلم الأخر، فغاية الفلسفة الحقيقية، وغاية الإيمان الطاعة " ^(٣)

وكل محاولة من شأنها أن تجعل الوعي جوهرأ لفصله عن الامتداد - وليس بخاف علينا معارضة ديكارت الفكر بالامتداد - لا تخرج عن كونها ضرباً من ضروب السوفسطائية للتأكيد علي عقلانية الإيمان وبأن النفس خالدة. وهم بذلك يسعون إلى إضافة واقع موضوعي علي ما ليس له هذا الواقع إلا في

^{١)} Unamuno, Migne De , Tragic sense of life , P,73-74.

قارن ايضاً : ميغيل دي اونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٩٨ .

^{٢)} يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط - الطبعة الثالثة - دار المعارف بمصر - ١٩٦٥ ص ٢٩ .

^{٣)} سبينوزا - رسالة في اللاهوت والسياسة - ترجمة وتقديم حسن حنفي - مراجعة د. فؤاد زكريا - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - ١٩٧١ ص ٨١ .

الفكر. لكن الخلود الذي نؤكد عليه وندافع عنه لا يخرج عن كونه خلوداً حقيقياً إيمانياً يعد بمثابة استمراراً لهذه الحياة أو بمعنى آخر امتداداً لحياتنا الدنيوية.^(١)

يذهب أونامونو إلى القول بأن كلا المذهبين العقلي ووحدة الوجود لم يوفقا في اقناعنا بخلود النفس. لأن القول بأن كل شيء هو الله، والموت لا يعني سوي العودة إلى الله، لا يقدم لنا شيئاً. وإذا تواجد في الله قبل الولادة، وعند الموت نعود حيثما كنا قبل الولادة. فإن ذلك يعني نفي أو عدم الاعتراف بخلود النفس. والمسيحية كديانة تؤمن بالإله الشخصي الواعي علة الوجود، فإن مذهب وحدة الوجود لا يخرج عن كونه الحاد مقنع.^(٢)

ونحن بدورنا فلسفياً لا نستطيع أن نصنف فيلسوف يعترف بوجود الله أياً كان هذا التصور ونصفه بالإلحاد. ومن الممكن أن نقبل ذلك من رجال الدين، ولكن من قبل فيلسوف مثل أونامونو فهذا رأي غير مقبول. وحتى نتبين رأى سبينوزا فيما تناوله نجده يذهب إلى القول بأن " قدرة الطبيعة هي نفسها قدرة الله وصفته المميزة، وأن قدرة الله هي ذاتها ماهيته.. ولما كانت قوة الطبيعة وقدرتها هي قوة الله وقدرته وكانت قوانين الطبيعة وقواعدها هي أوامر الله ذاتها، فمن الواجب ان نعتقد بلا تردد بأن قدرة الطبيعة لا نهائية ".^(٣)

ويتناول أونامونو عقلاني آخر ولكن ليس مستسلماً ولا حزيناً مثل سبينوزا، وإنما هو متمرد ويتظاهر بأنه قد وجد حلاً لخلود النفس سماه العود الأبدي أنه نيتشه. وليس بخاف علينا رفض أونامونو للعود الأبدي عند نيتشه لأنه " تخيل بطريقة رياضية علاجاً لخلود النفس سماه العود الأبدي، وهو أكثر الآسيان للحياة فظافة ".^(٤)

ونرى أن السبب الرئيسي في دفاع نيتشه عن فكرة العود الأبدي، أنه كان يرفض وجود عالم آخر أو نعيم مفارق. لأن الإنسان يحيا هنا في هذه الحياة ولا وجود لحياة أخرى. ويرفض التطلع إلى السماء لكن ينظر إلى أسفل لأنه مرتفع. وعن العود الأبدي عند نيتشه وماذا يعني، فنجد أن " ما كان أبدي، يعود من جديد. فالماضي أحياء حياة أخرى، والحاضر أحياء، لا بوصفه لحظة عابرة

^{١)} Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P,86.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١١٣ .

^{٢)} Ibid , PP, 88 , 89.

المرجع السابق ص ١١٦ .

^{٣)} سبينوزا - رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٨١ .

^{٤)} Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P, 100.

قارن أيضاً: ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١٣٠ .

تتقضي في الحال، ولكنه بوصفه أبداً وزماناً خالداً. كأن الإنسان إذ يستطيع عن طريق نظرية العود الأبدي أن يحيا كل لحظة... كما أن الخوف من الموت يزول نهائياً مادامت هذه الحياة نفسها وهي حياة حافلة بالنسبة إلى الفرد الممتاز، ستعود من جديد. فالموت إذاً لا خوف منه مادام المرء قد ضمن الخلود عن طريق نظرية العود الأبدي".^(١)

يلفت نظرنا أونامونو إلى أن أصحاب الإتجاه العقلي لديهم قناعة بأن الإنسان يتميز بالعقل وبالتالي يقدموا لنا النصيحة بالألا نحترم سوي العقل والابتعاد عن كل ما هو غير عقلي. وأن هؤلاء يصرحوا بأنهم ليسوا في حاجة إلى الإيمان بالخلود، وبالتالي ليسوا في حاجة إلى حوافز تساعدهم في الحياة وتكون دافعاً لهم في العمل. كما أن الأعمى بالولادة يؤكد لنا أنه ليس في حاجة إلى الرؤية، ونحن نصدقه لأن الإنسان لا يرغب فيما لا يعرفه معرفة تامة. لكن في المقابل من أقتنع في حياته أو في شبابه ذات مرة حتى لو كان بشكل مؤقت الإيمان بخلود النفس لا نستطيع الاقتناع بأنه يشعر بالراحة في حالة إنكاره الخلود. والعقلاني في إنكاره للخلود لا يخرج عن كونه إنسان ضال.^(٢)

ويتفق أونامونو مع فولتير الذي يذهب إلى القول بأن خلود النفس من المستحيل اثباته. والعقل البشري بوسائله الخاصة قادراً وبدرجة قليلة جداً اثبات خلود النفس التي اضطر الدين إلى الإيحاء بها إلينا.^(٣)

يتساءل أونامونو لماذا يشعر الناس بالخلع عند القول بأن العلم فشل في أن يحل محل الدين؟ وكذلك فشل العقل أيضاً في أن يحل محل الإيمان. من المتفق عليه أن العلم قدم للإنسان خدمات متعددة وحقق تقدماً هائلاً علي المستوي المادي. ولكن في المقابل فشل العلم في إشباع حاجاتنا العاطفية والإرادية.^(٤)

وما نريد ان نؤكد عليه هو أن أونامونو لم يكن متفرداً في موقفه وذلك فيما يتعلق بموقفه من علاقة العلم والدين. سنجد ذلك الموقف عند وليم جيمس في أن دراسته علمية، وقناعته بالعلم ليس لها حدود. وعلي الرغم من ذلك يدافع عن الدين

(١) د. عبد الرحمن بدوي - نيتشه - الطبعة الخامسة - وكالة المطبوعات - الكويت - ١٩٧٥ ص ٢٧٢، ٢٧٣.

(٢) Unamuno, Migne De , Tragic sense of life , P,101.

قارن أيضاً : ميغيل دي اونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١٣٢.

(٣) Voltaire , Philosophical letters, Translated with An Introduction by Erssset Dilworth , The Bobbs , Merrill company ,INC,1961 , P,56.

(٤) Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P,103.

قارن أيضاً : ميغيل دي اونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١٣٥.

وفي الوقت نفسه ظل متمسكاً بالعلم " رأي جيمس في تجريبية الانجليز جفافاً لا يرضي طبيعته الدينية ولكنه رأى أيضاً ان هيجل ادمج الافراد في الكل فقضي علي التجربة التي اعتبرها جيمس أساساً سليماً للبحث العلمي ".^(١)

ونجد دفاع جيمس عن الإيمان الديني، ويصف " الشخص المتدين الحق هو بالتبعية لا يمكن زعزعتة وممتلئ برباطه الجأش، ومستعد بهدوء لأي واجب قد يحدثه اليوم".^(٢)

وكذلك نجد إميل بوترو، يدافع عن الاعتقاد الديني ويقارنه بالإحياء في الطب " فالإحياء في الطب سواء عند المريض أو الطبيب يفترض الإيمان بقوة الطبيعة في العلاج بقوة الإيمان ذاته. أي باعتقاد شبيه بالاعتقاد الديني ".^(٣)

ويحتج أونامونو بعنف إزاء الحجة المزعجة التي اخترعها السياسيون البرلمانيون وأطلقوا عليها اسم صيغة الوفاق تلك التي يترتب عليها المهادنة، من خلالها لا يوجد فيها غالب ولا مغلوب إن الأمر هنا مختلف تماماً لأن هناك فرق واضح بين العقل والحياة ولا يصلح معهما علي الاطلاق صيغة الوفاق والمهادنة. لأن العقل يعيش في الواقع من خلال الصيغ، لكن الحياة علي النقيض من ذلك، لأنه أي الحياة تعاش ولا تقبل صيغاً، وأن الصياغة الوحيدة التي تتمشي معها هي إما كل شيء أو لا شيء^(٤).

وكما أكد أونامونو أن الإيمان لا يتسق مع العقل، ولكن لا يعني ذلك ان كلاهما ليس في حاجة إلى الآخر، فالإيمان والحياة والعقل يحتاج إلى بعضها البعض. وأن هذه الرغبة لا يمكن صياغتها في قضايا قابلة للنقاش عقلياً، ولكنها تفرض علينا فرضاً. فالعقل والإيمان كلاهما لا يتفقان وعلي الرغم من ذلك لا يستطيع ان يفصل أحدهما عن الآخر، فكلاهما في حاجة ضرورية إلى الآخر. فكلاهما لا يوجد أمامهما سوى أن يتساندا ويتشاركا. لكنها شراكة تتصف بالصراع. وفي الوقت ذاته نلفت النظر إلى أن الصراع يعد شكلاً آخر من المشاركة.^(٥)

(١) د. محمود زيدان - وليم جيمس - دار المعارف مصر - ١٩٥٨ ص ٨٣.

(٢) James, W, Essays on Faith and Morals, longman, Green and co, 1949, pp, 26, 27.

(٣) إميل بوترو - العلم والدين في الفلسفة المعاصرة - ترجمة د. احمد فؤاد الالهواني - الهيئة المصرية للكتاب ص ٢٤٨.

(٤) Unamuno Migue De , Tragic sense of life , PP, 106-107.

قارن أيضاً : ميغيل دي اونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١٣٨.

(٥) Ibid , P, 111.

المرجع السابق ص ١٤٣.

إنه لولا المسيحية لربما كان من الصعب أن تحدث أو أن توجد للنهضة التي حدثت في المجتمعات الغربية. ولولا الإنجيل والقديس بولس لكان من الصعب أن تفهم الشعوب الغربية التي تجاوزت ما كان سائداً في العصور الوسطى أفلاطون وأرسطو. وأن هناك استحالة أيضاً في اعتمادنا فقط علي العقل، كما أن هناك استحالة في اعتمادنا علي الدين أو بمعنى آخر من الاستحالة الاعتماد فقط علي تراثاً عقلياً، كذلك من الإستحالة أن نعتمد فقط علي تراثاً دينياً. فإن كلاهما يكمل الآخر وكلاهما في حاجة ضرورية إلى الآخر، لأن كل ما هو موجود في الحياة في النهاية في خدمة الإنسان. وإن كانت الإنسانية في حاجة إلى تقدم مادي كذلك في حاجة إلى إستقرار روحي.^(١)

يعني هذا إننا نجد أن الإيمان يتصف بأنه غير قابل للنقل، وكذلك العقل ليس حيويًا، وهذا يعني أن " الإرادة والعقل يحتاج كل منهما للآخر " ^(٢)

وهكذا نجد أن الإيمان يرتبط بالإرادة وليس بالعقل. يعني ذلك أن الإيمان هو إرادة في الإيمان، والإيمان بالألوهية لا يخرج عن كونه إرادة في أن يكون موجوداً. وكذلك نجد أن الإيمان بخلود النفس هو كذلك إرادة في أن تكون النفس خالدة. وأن حب المعرفة وحب الحياة أو بمعنى أدق حب البقاء تدخل كلها في صراع.^(٣)

ولا يعني ذلك أن المفكر أيا كان توجهه فإن ما يفكر فيه هو في النهاية من أجل الإنسان، وأنه يحدد دور العقل في أنه في خدمة الحياة، سواء أدرك ذلك أو لم يدركه فكلاهما يخدم الآخر، فالحياة تخدم العقل، والعقل يخدم الحياة.^(٤)

إن إنسانية أونا مونو وتمكن الإيمان من كل كيانه يجعلانه يعلن عدم فهمه لهذا الصنف من البشر الذي يذهب إلى القول بأنهم لم يفكروا فيما يحدث بعد الموت أو بمعنى آخر لا يعذبهم ما بعد الموت، وكذلك العدم لا يقلقهم. أما فيما يتعلق بأونا مونو فإنه غير راغب في أن يقيم سلاماً ما بين قلبه وعقله، أو ما بين ما هو إيماني وبين ما هو عقلي. لكن رغبته الحقيقية تكمن في أنه يريد ما أي الإيمان والعقل أن يتصارعا فيما بينهما ^(٥).

¹⁾ Ibid , P, 112.

المرجع السابق ص ١٤٤.

²⁾ Ibid , P, 113.

المرجع السابق ص ١٤٥.

³⁾ Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P,114.

قارن أيضاً : ميغيل دي اونا مونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ١٤٧.

⁴⁾ Ibid , P, 116 , 116.

المرجع السابق ص ١٤٩.

⁵⁾ Ibid , P,119.

المرجع السابق ١٥٢.

ثانياً: الإيمان بين الإله القلبي والإله العقلي

مما لا شك فيه أن الألوهية في أديان التوحيد بشكل عام لها مكانتها المتميزة وأن وجودها أي وجود الله يعني وجود الدين ذاته وأن انهيار الألوهية يعني بشكل مباشر انهيار أديان التوحيد بشكل عام. ولذا نجد تعدد المواقف واختلافها بإزاء الألوهية، ونجد أن أونامونو يرفض تماماً البراهين الكلاسيكية، حيث تحولت الألوهية على أيديهم إلى مجرد فكره، وهي بذلك لا تثبت في الواقع شيئاً. والألوهية بهذا الشكل الفكري لا تقدم شيئاً حيث لا تخرج عن كونها فكرة تبدأ من الفكر ذاته وتنتهي في الفكر ذاته. ماذا تقدم تلك الأدلة العقلية في الواقع الحي الملموس عندما تصف الألوهية بأنها لا نهائية ومطلقة وأزلية، وكذلك التشبيه التقليدي بالساعة والساعاتي، لا يمكن أن ينطبق هذا على موجود اسمي لا نهائي وأزلي ومطلق. وأن مثل هذا الإله "نعجز تماماً عن الشعور به بشكل حي وحقيقي، ولا يخرج عن كونه فكره محضه تموت بموتنا".^(١)

إن الله عند أونامونو لا يمكن التعامل معه علي أنه يفكر وإنما بكونه يعمل ولأنه يخلق، أنه ليس إلهاً تأملياً، بل فعلاً. أما فيما يتعلق بالإله العقلي أو الإله النظري التأملي كما نجد عند تصور العقلانية اللاهوتية فهو اله غير حيوي لا يمكن التواصل معه لأنه إله يذوب في تأمله ذاته.^(٢)

وهكذا نجد أن الإله المنطقي إلهاً فكرياً لا وجود له في الواقع وبالتالي لا يحب ولا يبغض في الواقع، وإنه لا يعاني، إله من غير ألم ولا مجد، إنه إله لا إنساني، وعدالته عدالة عقلية، لا علاقة لها بالواقع الحي الملموس.^(٣)

وفي خطاب مؤرخ من باريس ١٩٠٥/٥/٢٩ دحض صديقه الوندين محاولة أونامونو إثبات وجود الله علي أساس الاحتياج إلى الله. وقد شرح خطاب أريلز - صديق أونامونو - إلى الوندين تفكير وإعتقاد أونامونو في هذا الموضوع. أن أونامونو شأنه شأن تولستوي افترض أنه توصل إلى الله عن طريق القلب أو الوجدان منكرًا إنه في إمكان العقل إدراكه.^(٤)

^{١)} Unamuno Migue De , Tragic sense of life , P,1,2.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢٠٢ .

^{٢)} Ibid , P,164.

المرجع السابق ص ٢٠٤ .

^{٣)} Ibid , P,167.

المرجع السابق ص ٢٠٧ .

^{٤)} Rudd , M,T,The lone Heretic Abiography of Miguel de Unamuno , P,134.

وفي رسالته المكتوبة من باريس في ١٩٠٥/٤/٢٥ وضع السؤال : ماذا تعني كلمة (الله) ؟ وأجاب أونامونو بشكل مباشر وبسيط " أنا أعني بكلمة الله ما يعنيه تماماً أغلب المسيحيين : كائن شخصي، مدرك، غير محدود وأبدى، يحكم الكون. هو ضميره وأعتقد أن الكون له غاية روحية وأخلاقية. (١).

أما الصفات التي يتصف بها الله الحي نستطيع أن نلمسها مباشرة في وعي كل فرد من المؤمنين المسيحيين، انه الإله الحي الذي يوجد بيننا وبينه تواصل. يتناقض ذلك تماماً مع الإله العقلي الميتافيزيقي الذي لا يؤدي إلى شئ سوى تديد لطاقة الإنسان، ولا نصل من خلاله إلا إلى الإله المجرد من الشخصية أو بمعنى أوضح الإله الذي هو والعدم سواء. (٢).

وهكذا نجد تقارباً بين مفهوم أونامونو للميتافيزيكا وبين مفهوم برديائف. حيث نجد رفض برديائف للتفكير المجرد الذي وقع فيه الميتافيزيقيون القدامي بتجاهلهم للحياة والبشر. ومن خلال هذه النظرية يعد الميتافيزيقي رمزاً للسطحية والتخبط. لكن الأساس الحقيقي للميتافيزيكا عند برديائف هي " معرفة الحياة، والواقع العيني، ومعرفة الإنسان ومصيره، ومن ثم فإن الميتافيزيكا يجب أن تكون تعبيراً عن الحركة الحية التي يشترك فيها الفيلسوف إشتراكاً حقيقياً " (٣).

وهكذا نجد تأكيد أونامونو علي أن الإله الإنساني نفشل في الوصول إليه من خلال العقل، ولكن من خلال الحب والمعاناة، والعقل لا يقربنا منه، ولكن بالعكس يبعدنا عنه. وإننا لا نستطيع أن نعرفه ثم بعد ذلك نحبه، بل ينبغي علينا أن نحبه أولاً، وأن نتملكنا الرغبة الشديدة إليه قبل أن نعرفه. وأن معرفة الله تنطلق من حب الله، ولكن علينا ألا نفسر تلك المعرفة من منطلق عقلي، لأننا من المستحيل أن نصل إلى تعريف الله، ومن يسعي في سبيل ذلك فإنه لن يصل إلى شئ (٤).

وهكذا نجد تأثر أونامونو بالقدّيس أوغسطين وموقفه من العقل. نجد ذلك في اعتراف أوغسطين أنه حين ينظر إلى " شبابه يشعر بأنه ارتكب خطيئة

١) Ibid , P,152.

٢) Unamuno Miguele De , Tragic sense of life , P,167.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢٠٧.

٣) Berdyaev ,N, Solitude and Society , Translated From The Russian By Gloffrey Bies , London , 1938 , P,31.

٤) Unamuno, Miguele De , Tragic sense of life , P,168.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢٠٨.

(الغطرسة العقلية) يقصد بهذا اعتقاده بأن في استطاعته أن يفهم جيداً أسرار الكون ويكشف لنفسه طبيعة الحقيقة. (١)

العقل الإنساني عند أوغسطين ناقص، وينبغي عدم الاعتماد عليه بشكل كامل. لكن ينبغي أن يكون الإيمان البداية الحقيقية لأن مصدره الله الضامن لكل حقيقة " هل تبلغ الفلسفة إلى الله؟ لقد استكشفت الفلاسفة حقائق جليلة نافعة ولكنهم لم يستكشفوا كل الحقيقة الضرورية للإنسان ووقعوا في أضاليل خطيرة لا يستطيع العقل بقوته الطبيعية أن يهتدي إلى الحقيقة بأكملها وأن يحترز من كل ضلال (٢).

ويتذكر أونامونو محاولته في البحث عن الله من خلال العقل. فيؤكد فشله في ذلك ولم يوفق في أن يتخذ من الله فكرة. حدث ذلك عندما كان تأنها في غمار العقلانية. ولكن عندما وجدت نفسي مشتتاً وضائعاً ما بين العقل والعاطفة " اشتعل بداخلي الجوع إلى الله، والاختناق الروحي جعلني في تناقض داخلي بفقدانه وبواقعيته. وعندئذ سيطر علي الحب في أن يكون الله، وأن يوجد الله، وأن الله لا يوجد فحسب ولكنه يفرط في الوجود " (٣).

إن ما يؤمن به أونامونو ويدافع عنه ويعضده هو الإله القلبي إله الأحياء، لأنه يمثل العالم ذاته مشخصاً، وأنه وعي العالم. إن هذا الإله يتصف بأنه إله عالمي وفي الوقت ذاته شخصي، وهو مختلف كل الاختلاف بل علي النقيض تماماً من إله التوحيد الميتافيزيقي الفردي المتصلب. ويجب التنويه هنا أن الفردية ليست هي الشخصية، ولكن كل منهما في حاجة إلى الآخر. فالفردية هي الحاوي والشخصية هي المحتوي. (٤)

وهكذا نجد تقارباً بين مفهوم الشخصية عند أونامونو وبين برديائف. فالشخصية عند برديائف لها مكانتها المتميزة. وجود الشخصية يعني وجود ما هو أعلى منها، والشخصية لا تخضع لقوانين العالم ومنفتحة علي اللا نهائي، يمهد ذلك لوجود الألوهية. (٥)

1) W.T.Jones , History of western Philosophy ,The Medieval Mind , Second Edition ,Harcourt Brace Javanovich INC. 1952,P,77.

٢) د. يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ص ٢٩.

3) Unamuno, Migne De , Tragic sense of life , P,169.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢٠٩.

4) Ibid , P,170.

المرجع السابق ص ٢١١.

5) Berdyaev ,N, slavery and freedom Trans , By R.M.French , 1944 , P,36.

وهكذا نجد أن أونامونو ينتقد الألوهية العقلية - كما أشرنا سابقاً - لأن الإله العقلي لا يخرج عن كونه فكرة لا علاقة لها بالإله الحيوى الذي نحس به وننصوره وعياً وبالتالي شخصاً. أن الإله العقلي لا يخرج عن كونه فكرة تبدأ وتنتهي في ذهننا دون أن يكون لها علاقة بالواقع الحي الملموس. إن الألوهية هي ما نحس به في قلبنا شخصاً حياً أو وعياً وليس عقلاً " إن الإله الحي وإلهك، وهو فينا ونحن نحيا ونتحرك به ونكون فيه. هو فينا برغبتنا الجامحة نحوه، وجعله مشتهاناً ويذهب كيركجور إلي القول (بأنه إذا كان هناك رجلان يصلي أحدهما لله ويفتقد الصدق الشخصي، ويصلي الآخر لصنم برغبة وبحب جارف، فإن الأول هو الذي يصلي لصنم في الواقع، بينما الآخر هو الذي يصلي حقاً لله) يعني هذا أن الله الحق هو الذى يُعبد بصدق ويُرغب فيه عن حق ".^(١)

يتحدث أونامونو عن الألوهية بلغة الحب بين العاشق والمعشوق، ولا يقف كثيراً عند لغة العقل، ولكنه عاشق للغة القلب والوجدان. إن علاقة الحب هي علاقة لا يمكن أن تحدث إلا بين شخصين كلاهما يذوب في الآخر عشقاً دون أن يسأل تلك الأسئلة العقلية الشخصية التي من قبيل لماذا نحب؟ أو كيف نحب؟ أو لم نحب؟ لأن الحب هي حالة يحيا فيها المحب. إن الله الذي نحبه أو إله الحب لا معنى لسؤالنا كيف هو؟ أن الله هو الذي " يلهمنا الإيمان، الإيمان به ذاته، ولتكن مشيئته - وليس عقله - كما هي في السماء كذلك في الأرض.. وهو إلهك الذي عاش معك وفيك، وولد بوالدتك، كان طفلاً وأصبح رجلاً عندما أصبحت رجلاً، وهو من منحك الحياة الروحانية.. وإذا أمنت بالله، فإن الله يؤمن بك، وبإيمان الله بك تخلق خلقاً مستمراً ".^(٢)

وهكذا يؤكد أونامونو علي أن مشكلة وجود الله من المستحيل أن نصل فيها إلى نتيجة من خلال العقل. لأن مشكلة وجود الله لا تخرج عن كونها غير مشكلة الوعي، مشكلة وجود النفس واستمرارها، مشكلة خلود النفس البشرية ذاتها، مشكلة غاية الكون، والإيمان بالله الحي والشخصي أو الإيمان بوحي أبدي كوني، هو إيمان بأن الكون وجد من أجل الإنسان.^(٣)

^{١)} Unamuno Migue De , Tragic sense of life , P,178.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢١٨.

^{٢)} Ibid , PP,179,180.

المرجع السابق ص ٢٢٠، ٢٢١.

^{٣)} Ibid , P,182.

المرجع السابق ص ٢٢٤.

وإذا افترضنا أن العالم يفتقد إلى الوعي في هذه الحالة - كما يذهب أونامونو - أنه هو والعدم سواء، وأن الخوف يتمكن منا في هذه الحالة أكثر الف مرة من خوفنا من العمل. لأن مثل هذا الفرض إذا صار واقعاً، فإن حياتنا في هذه الحالة تفقد حيويتها وتصبح مجردة تماماً من كل قيمة وكل معنى.^(١)

وهكذا نجد تأكيد أونامونو علي أن الضرورة العقلية ليست هي التي تجعلنا نؤمن بالله ولكن ما يحملنا علي ذلك الفلق الحيوي. والإيمان بالله هي رغبة ملحة بداخلنا تحتاج نفوسنا، إنه الحب الجارف والحيوي يأخذنا حيث الإحساس بالله. وأن الحزن قطعاً يملكنا، والضياع والتشتت في حالة خلو العالم من الألوهية لا يخرج عن كونه الرغبة التي يملكنا وتسيطر علينا في أن يكون الله، إنها الرغبة في إنقاذ الغاية الإنسانية للكون.^(٢)

ثالثاً : الإيمان والرجاء

واتساقاً مع فلسفة أونامونو نجده يذهب إلى القول بأننا من خلال الإيمان في إمكاننا أن نصل إلى الله القلبي أو الحي. ويرفض تماماً إمكاننا الوصول إلى الإله من خلال العقل، لأن الإله العقلي أو المنطقي إله ميت لا جدوي منه وهنا يطرح سؤال نفسه ألا وهو ماذا يعني الإيمان؟ هنا نجد الإجابة ألا وهي ليس تصديق ما نعجز عن رؤيته ولكن خلق ما لا نراه. وهذا يعني أن إيماننا بالله لا يخرج عن كونه رغبتنا الملحة والضرورية في أن يوجد. إننا نؤمن ويستحوذ علينا الرجاء والأمل بالله، وهذا يعني رغبتنا الجارفة في وجود إله يكون بمثابة الضامن الوحيد لأبدية وعينا، وهذا ما يقودنا إلى الإيمان به.^(٣)

وهكذا نجد أن أونامونو علي الرغم من تأكيده مراراً علي أن الإيمان يعد بمثابة وسيلتنا الوحيدة في الوصول إلى الله وليس من خلال قناعة عقلية أو رياضية. نجده يغير من موقفه المتشدد إزاء العقل، وهذا يعني أن الإنسان يظل دائماً لديه رغبة دفينه في أن للعقل مكانته ودوره الذي لا يمكن تجاهله. ولا يعني ذلك تخلي أونامونو عن موقفه المؤيد للإيمان من خلال العاطفة ولكنه تعديل في موقفه المتشدد إزاء العقل والاعتراف بأن ما هو معرفي أو منطقي

^{١)} Unamuno Migue De , Tragic sense of life , PP,183,184.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢٢٥.

^{٢)} Ibid , P,184.

المرجع السابق ص ٢٢٥، ٢٢٦.

^{٣)} Unamuno Migue De , Tragic sense of life , P,186.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢٢٧ ، ٢٢٨.

له دوراً وإن كان تابعاً لما هو عاطفي " فالإيمان مركب من عنصر معرفي أو عقلي جنباً إلى جنب مع عنصر عاطفي حيوي ".^(١)

إن موقف أونامونو هذا لا يجعل القيادة في الإيمان للعقل ولكن تظل القيادة في الإيمان للعاطفة وإن كان خفف من موقفه المتشدد بإزاء العقل ودوره. وهنا نتذكر ما ذهب إليه القديس أوغسطين في أن الإيمان أولاً ثم يأتي بعد ذلك دور العقل، وهذا يعني أن " للعقل مهمة بعد الإيمان، هي تفهم العقائد الدينية، وهنا الإيمان سابق علي التعقل معين عليه، فإنه يظهر القلب والعقل أقدر علي البحث وأسرع قبولاً للحق، بحيث نقول (آمن كي تتعقل) " ^(٢)

ولكن ينبغي علينا ألا نفهم من ذلك تناقض أونامونو مع موقفه الراض لما هو نظري، ولكن لا يخرج عن كونه تخفيفاً من حده موقفه مع ما هو نظري. وهذا يفسر لنا عودته مباشرة إلى التأكيد علي أن ثقته في الإيمان أكثر من ثقته فيما هو عقلي " لأن الإيمان في ذاته ليس معرفة نظرية، وإنما الإيمان هو الاستسلام الكلي لسلطان الله الروحي والطاعة المتواصلة " ^(٣)

لم ولن نسمع عن إنسان قام ببذل حياته دفاعاً عن زوايا المثلث الثلاث تساوي قائمتين لأن مثل هذه الحقيقة ليست في حاجة إلى التوضيح من أجلها. ولكن نجد في المقابل ان هناك كثيرين ممن بذلوا حياتهم دفاعاً عن الإيمان الديني، انطلاقاً من أن الشهداء يصنعون الإيمان أكثر مما يصنع الإيمان الشهداء. اتساقاً مع أن الإيمان ليس التزاماً عقلياً محضاً بمبدأ مجرد، وإنما الإيمان يرتبط بما هو قلبي وحيوي. وإن كان هناك ارتباط ما بالعقل، فإن المصدر الحقيقي الذي يستمد منه الإيمان قوته يتمثل فيما هو فوق الطبيعي ^(٤).

إن النتيجة المهمة للإيمان هي الخلق، لأن الإيمان يخلق موضوعه. وإيماننا بالله يكمن في خلق الله، فإذا كان الإيمان هبه من الله، فإن الله هو الذي يخلق نفسه فينا خلقاً مستمراً. وأن الله عندما يخلق نفسه فينا فإن ذلك يتم من خلال

¹⁾ Ibid , P,187.

المرجع السابق ٢٢٨.
^{٢)} يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ص ٢٩.

³⁾ Unamuno Migle De , Tragic sense of life , PP,187,188

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢٢٩.

⁴⁾ Ibid , P,191.

المرجع السابق ص ٢٣٣ ، ٢٣٤

الشفقة والحب. والإيمان بالله يتمثل في حبنا إياه وخشيته بعب. وبمعني أدق أن نبداً بحبه وذلك قبل معرفته، وحبه يعني أننا نراه ونكتشفه في كل شيء. (١)

وإنني أتعجب كل العجب ويتمكنني الخجل، عندما أواجه بسؤال عن كيفية إيماني بالله. لأنني أؤمن بالله كما أؤمن بأصدقائي لأن لدي إحساس عميق بقوة غير منظورة وغير ملموسة تجذبني. ويسيطر علي شعوراً عميقاً بعناية إلهية في أدق تفاصيل حياتي. لأنني في مرات كثيرة وجدت نفسي علي شفا هاوية، وفي مفترق طرق، فأسلك أحدها وأبتعد عن سائرهما، عندئذ يتملكني شعور بوجود قوة واعية مهيمنة ومحبه تدفعني. في هذه الحالة يشعر المرء بانفتاح طريق الرب (٢).

إن إيماننا بالله وحبنا إياه لا يخرج عن كونه رجاء وأمل فيه. لأن الله يتصف بالحياة وبالتالي لا يموت. لأن الله هو أساس كل شيء ونتعلق به بالرجاء وكلنا أمل فيه. والإيمان قبل أن يهبنا الرجاء هو إيمان لا شكل له وغامض، والحب يجعلنا نؤمن بالله الذي وضعنا رجاءنا فيه. ومن خلاله يتملكنا الرجاء في الحياة القادمة ومن خلال الحب نؤمن بما يخلقه فينا حلم الرجاء (٣).

وهكذا نجد ان الإيمان يتجسد في رغبتنا فيما هو أزلي في الله، والرجاء يعني رغبة في الله أي رغبة في الأزلي ألا وهو الله، في سعيها الالتقاء بالإيمان من أجل أن تسمو بالإنسان وتنتشله من التخبط والضياع حيث الاستقرار والأمان والسعادة. وأن هذا الالتقاء بين الإنسان وبين الله من خلال الإيمان وكأن لسان حاله يقول ربي أنا أؤمن، فأعطني ما أؤمن به. ونتيجة التواصل بين الإنسان وبين الله يصل الإنسان إلى الطمأنينة من خلال ما يرسله الله للمؤمن من الرجاء في حياة أخرى، ليؤمن بها ويترسخ بداخله حقيقة واضحة تماماً لا غموض فيها ويستقر قلبه ويؤمن بالحياة الأخرى الأبدية. ولا يصل إلى هذا إلا من يؤمن ويرجو حق الرجاء ويترتب علي ذلك ألا يرجو إلا من آمن حق الإيمان. وهنا نجد تداخلاً بين الإيمان وبين الرجاء، بحيث لا نؤمن إلا بما نرجوه، ولا نرجو إلا ما نؤمن به. (٤)

1) Ibid , P,193

المرجع السابق ص ٢٣٥

2) Unamuno Migne De , Tragic sense of life ,PP,194,195.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢٣٧، ٢٣٨.

3) Ibid , P,200.

المرجع السابق ص ٢٤٣.

4) Unamuno, Migne De , Tragic sense of life , P,200.

قارن أيضاً: ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٢٤٣، ٢٤٤.

وفي كلمة نهائية يذهب أونامونو إلي أنّ العالم ينقسم إلى قسمين شرقي وغربي. والشرق أكثر تعاطفاً مع الإيمان بالأسرار، والغرب أكثر تمسكاً بالحقيقة العلمية. والشرقي يطلب من الأزلي أن يأخذ بيده ويسانده فيما يعترضه في الحياة من مشكلات، بينما الغربي يمسك بالواقع ليضفي عليه أسباباً معقولة ومفهومة. وكلاهما ينظر إلى الآخر نظرة سيئة بل يحتقره في جوانب كثيرة. ولكن في الواقع أن كلا نصفي الكرة معاً يشكل العالم كله، ولا نستطيع ان نتجاهل نصف العالم من اجل النصف الآخر، ولكن كلاهما يمثل العالم^(١).

ونستطيع القول بأن العقلانية في العالم شرقيه أو غربيه أكثر إلتزاماً بالتحديد، ويدافعون عن المفهوم، بينما الحيويون يتجهون إلى البحث في الإيحاء ولديهم إيمان بالشخص يسعي العقليون في محاولتهم معرفة العالم ليقفوا علي أسراره بينما الحيويون يسعون إلى أن يجعلوا أنفسهم علي اتصال مباشر بروح العالم وبالله ليجدوا سناً قوياً. وقاعدة متينة لما يسعون إليه من رجاء، واثباتاً لما لا يرون^(٢).

وهكذا نجد ان أونامونو علي الرغم من انه يجعل العالم نصفين شرقي وغربي، فإننا نجده يتنبه إلى أن مثل هذه القسمة قد لا تكون بهذا الشكل. لأن هناك في الشرق من يتمسك بما هو عقلي، وكذلك نجد في الغرب من يتمسك بما هو حيوي.

رابعاً : الإيمان والخلود

يطرح أونامونو عدة أسئلة تتعلق بمشكلة الخلود ألا وهي، لماذا أريد أن أعرف من أين أتيت وإلى أين سوف أذهب، ومن أين أتى الذين حولي وإلى أين سوف يذهبون، وماذا يعني كل ذلك ؟ ذلك لأنني لا أريد أن أموت إجمالاً، وأريد أن أعرف ما إذا كان يجب أن أموت أم لا للابد. وإذا لم أمت ماذا سيحدث لي ؟ وإذا مُت فلا شيء له معني البته^(٣).

إن الرغبة في الخلود تسيطر علي الإنسانية حتي من ينكرون الخلود يتمنون من داخلهم الخلود. إنها صرخة مدوية بداخل الإنسان يتمني أو يحلم بالخلود ولكن إذا حاولنا ذلك عقلياً نصاب بخيبة الأمل، ولم لا ؟ والإنسان يكون

¹⁾ Ibid , PP,190.

المرجع السابق ص ٢٣٢.

²⁾ Loc-cit.

المرجع السابق ٢٣٢، ٢٣٣.

³⁾ Barea , Arturo , Unamuno ,P,28.

أكثر إنسانية بالإحساس والمشاعر والوجدان، وقلما نصل إلى ذلك الاعتقاد بالخلود من خلال العقل. إن الإنسان الذي يبنينا إليه أونامونو ليس عقلاً فقط ولكنه إنسان بلحمه وعظمه وإحساسه ووجدانه " الخلود هي رغبة ملحة نحن في أشد الحاجة إليها، والعطش إلى الأبدية هو ما يسمي حياً بين البشر، ومن يحب آخر فإنما يريد أن يتخلد فيه. ويؤكد الواقع علي الخلود": (١)

إن ما يرسخ الحب بداخلنا إنما هو شعورنا بزوال العالم العرضي. والحب هو الشيء الوحيد الذي يتغلب علي كل ما هو وقتي وزائل، وإنه الشيء الوحيد الذي يثري الحياة ويخلدها وهكذا نجد أن الحب يأخذنا إلى ما هو أبعد من العالم العرضي، ويكشف لنا عن أمل في وجود عالم آخر. حيث يتمكنني شعور بأنني أكون دائماً، وأن رغبتني الملحة في الوجود تتمكنني وتجعلني أشعر بوجود أعظم يتصف بالخلود وبالتالي يجعلني أكثر يقيناً ورغبة في الخلود. (٢)

هناك شبه إتفاق بين الإنسانية علي ان عبادة الأجداد والموتي كانت هي البداية الحقيقية للأديان البدائية بشكل عام. وهناك فرق جوهري واضح تماماً لا اختلاف عليه بين الإنسان والحيوان يتمثل في أن الإنسان يحتفظ بطريقة أو بأخري بموته قدر استطاعته، وعلي قدر ما هو متاح له، وإن قدر له أن يحتفظ بموته للأبد ما تردد في ذلك. يعني ذلك أن الإنسان وما يتميز به من صفات متعددة نستطيع أن نضيف إليه صفة أنه حافظ للموتي. وهنا نجد انفسنا بإزاء تساؤلاً لم يحفظهم؟ نجد الإجابة في أن هناك شعوراً متمكناً منه يتمثل في رغبته الملحة في الخلود. (٣)

وتعبيراً عن الرغبة الدفينة عند الإنسان للخلود، نجدها أكثر وضوحاً في الاختلاف البين بين ما كان يسكن فيه وبين ما أعده لأن يدفن فيه. نجد أنه قام ببناء مساكنه من طين أو أكواخ من القش لم تصمد كثيراً وهدمتها عوامل الطبيعة. بينما نجد في المقابل ترتفع أضرحة الموتى، وتم استعمال الحجر في بناء القبور قبل استعمالها في بناء المساكن. ولذا استمرت بيوت الموتى وكانت أكثر قوة في مواجهة العوامل الطبيعية، بينما انهارت البيوت بسهولة نتيجة

1) Unamuno Migue De , Tragic sense of life , P,39.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٥٤.

2) Ibid , P,39.

المرجع السابق ص ٥٥.

3) Unamuno Migue De , Tragic sense of life , PP,40 ,41.

قارن أيضاً: ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٥٦.

الفارق في قوة البناء ما بين القبور والمسكن. وهذا يعكس رغبة الإنسان وشغفه بالخلود.^(١)

يذهب أونامونو إلى القول بأنني لست قلقاً علي شئ مهما كان طالماً أنني لن أكون خالداً. إنني لست علي استعداد أن أفني في أي شئ مهما كان حتي لو كان هذا الفناء في الله الذي أصبو إليه، المهم أنني في حاجة ضرورية وملحه علي أن أكون انا الذي اكلمكم الآن، ولن اقبل بخداع الواحديين، لأنني لا اجد بديلاً يقنعني سوي أنني أريد الخلود حسبما كما أنا موجود عليه الآن.^(٢)

إن الرعب يتملكني عند اضطراري أن افكر في الانفصال عن جسدي. وان ارتعادي يكون أكثر إزاء فكرة إضطراري إلى الانفصال عن كل ما هو محسوس ومادي، وعن كل واقع. وإذا كنت أنني وبحق أتعلق بالله بكل قواي وحواسي، لأنه يمنحني الخلود الذي أصبو إليه، وأن أكون كما أنا في الحياة الدنيا بكل وجودي كما هو دون تعبير، ولا تحدثوني عن الروح وانفصالها عن الجسد. حيث إنني إنسان بكل ما تحمله الكلمة من معني، من جسد وروح لا انفصال بينهما ولن أقبل أن يحدثني أحد عن خلود الروح دون الجسد، إنني أريد ذاتي كما هي في الواقع.^(٣)

وإذا تناولنا الخلود عند فلاسفة الاسلام ولا سيما ابن رشد، نجد أن فلسفته العقلية كما ذهب أونامونو جعلته يرفض الخلود للأجساد وجعل الخلود للنفس فقط، وذهب إلى استحالة بعث الاجساد " إنه يظهر ان مواد الأجسام التي ههنا توجد متعاقبة متنقلة من جسم إلى جسم وأعني أن المادة الواحدة بعينها توجد لأشخاص كثيرين في أوقات مختلفة. وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن ان توجد كلها بالفعل لأن مادتها هي واحدة ".^(٤)

نجد أن موقف ابن رشد بالقول بأن الخلود سيكون للروح فقط دون الجسد يختلف مع تعاليم الدين الاسلامي " لأن القول بخلود الروح وحدها لا يكفي ولا بد أن تبعث معها الأجساد أيضاً، لأن السعادة أو الشقاء المنتظر في

^{١)} Ibid, P,41.

المرجع السابق ص ٥٧ .

^{٢)} Ibid , P,46,47.

المرجع السابق ٦٤ .

^{٣)} Unamuno Migne De , Tragic sense of life , PP,47.

قارن أيضاً : ميغيل دي أونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٦٥ .
^{٤)} ابن رشد - الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة - تحقيق لجنة أحياء التراث العربي في دار الأفاق الجديدة - بيروت - ١٩٨٢ ص ١٣٨ .

الحياة الأخرى لم يعد للأرواح وحدها بل معها الأجسام. والإنسان الذي تخاطبه الأديان وتصب عليه المسؤولية جسم وروح، فينبغي أن يبعث بكامل هيئته".^(١)

ونجد فولتير يؤمن بالخلود من منطلق اخلاقي بمعنى ان خلود النفس لا يخرج عن كونه موقفاً أخلاقياً تفاؤلياً " ويقضي الصالح المشترك للجنس البشري بتصديق أن الروح خالدة ويأمر بهذا الإيمان، ولا شيء أكثر من ذلك".^(٢)

يفترض أونامونو أن هناك سؤالاً يوجه إليه من أنت؟ فإن الإجابة في هذه الحالة، انا بالنسبة للعالم لا أمثل شيئاً، ولكن بالنسبة لنفسي فأنا كل شيء. إنها ليست غرور، ولكنه يقين متمكن من الإنسان في انه يساوي كل شيء، لأن بداخله نداء يقول أنك إنسان خالد. وإذا حاول أن يشكك في هذا الخلود وأن يتهمني بأنني إنسان أحلم، فأنا أرحب أن أظل في هذا الحلم ألا وهو حلم الخلود ولا أريد من أحد أن يوقظني. ولكن عليكم أن تؤمنوا بالخلود، لأن هذه الرغبة في الخلود هي بمثابة القوام الاساسي لروحي. وهنا يطرح سؤالاً نفسه لم تريد أن تكون خالد؟ إن هذا السؤال ليس له معنى بالنسبة لي. لأنه كسؤال العقل عن العقل والغاية عن الغاية والمبدأ عن المبدأ^(٣).

ويذهب أونامونو إلى القول بأن الشكوك إذا ما تمكنت من إنسان وحجبت عنه الإيمان بخلود النفس في هذه الحالة تسيطر عليه الرغبة في تخليد الاسم من خلال محاولته بأي وسيلة كانت تتيح له الفرصة في أن يكون إنساناً ذو شهرة حتى يبلغ نوعاً من الخلود أياً كان. ومن هنا يتمكن منه هذا الصراع ومحاولته في التفرد والبقاء بشكل ما في ذاكره الآخرين والأجيال المقبلة. تلك هي السمة التي تسيطر على الأفراد في مجتمعات لا تعتقد في الخلود.^(٤)

وعندما يهاجمنا الشك في خلود أرواحنا - كما يذهب أونامونو - نصبح متشوقين للوصول إلى ظل الخلود. نريد أن نكون بارزين لربما يبقى شيء ما من أنفسنا على قيد الحياة في ذاكره الآخرين.. ويتم إرواء ظمأ الخلود عند البسطاء من خلال نافورة العقيدة الدينية، إلا أن الشرب هناك لا يقدم للجميع والكنيسة الكاثوليكية هي المؤسسة التي يتوجب عليها حماية تلك العقيدة أو الإيمان بالروح الأبدية وذلك من أجل غايتها الأساسية. الآن الكاثوليكية أرادت أن تعقلن هذه

(١) د. إبراهيم منكور - في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه - الجزء الأول - دار المعارف - طبعة ثالثة - ١٩٧٦ ص ١٨٤.

(٢) Voltaire , Philosophical Letters , P , 56.

(٣) Unamuno Migne De , Tragic sense of life , P,47,48.

قارن أيضاً : ميغيل دي اونامونو - الشعو المأساوي بالحياة ص ٦٥ , ٦٦.

(٤) Ibid , P,52.

المرجع السابق ص ٧١.

العقيدة أو الإيمان بتحويل الدين إلى علم لاهوت بتأسيس العقيدة الأساسية علي الفلسفة. (١)

وهكذا نجد أن دفاع أونامونو عن الخلود من منطلق معتقده الدين المسيحي الذي وجد في هذا الإعتقاد أو شعر من خلاله بالأمان والاستقرار والهدوء والطمأنينة. وعلي الرغم من ذلك أثناء منفاه في باريس ورد تعبير أونامونو العفوي التلقائي بموت المسيحية، والذي يتفق أو يتلاقى بشكل مباشر مع عمل سبنجلر المسمي (سقوط العالم الغربي). وقد تسبب ظهور هذا العمل في توجيه النقد من قبل رجال الدين.. إن نقص الفهم والتجاهل التام تجسد في كاهن واحد اعترض بصوت عال بأن المسيحية بأي حال من الاحوال علي سرير الموت، وأشار بإصبع الإتهام تجاه من تجرأ أو كتب مثل هذه الهرطقة.. وفيما بعد أشار أونامونو أن تفسير هذا الكاهن للعمل علي أنه موت المسيحية تكشف عن عدم قراءته للكتاب الذي إدّعي نقده. (٢)

وعندما سأل أونامونو احد السياح عن ديانته، أجاب فوراً (نحن جميعاً هنا في إسبانيا كاثوليك حتي الملحدين). وحاليا تغتصب الكنيسة الكاثوليكية حق تعريف المسيحي، وبالتالي ينطبق ذلك علي هذا الاختيار الذاتي الحر بشأن المسيحية. فمن ليس كاثوليك، إذن ليس مسيحياً.. وكما يوضح في (ديني والحكم علي الآخرين) المسيح هو معيار (المرجعية) للمسيحية وكل العقائد الأخرى لا ضرورة لها. إن غاية المسيحية إنقاذ أرواح البشر، وليس تقديم أو جلب صحة أفضل ولا حتي نشر الثقافة أو الحضارة. (٣)

¹⁾ Barea , Arturo , Unamuno ,P,30.

²⁾ Rudd , M,T,The lone Heretic Abiography of Miguel de Unamuno , P,151.

³⁾ Ibid , P,153.

عندما هزمت إسبانيا في الحرب الكوبية في عام ١٩٩٨، وفقدت البقايا الأخيرة من إمبراطوريتها، صدم الجيل الأصغر بالكامل وأصبحوا علي بينه لما حدث أو تعرض له وطنهم، هذا جيل ٩٨ خرج ليكتشف إسبانيا أخرى تعرضت لهزيمة منكرة زلزلت الجميع، وأصبح وطنهم يحيا في محنة حقيقية.

وينتمي أونامونو إلي الجيل الذي اتفق علي تسميته بأنه جيل ٩٨. هذا الجيل وقع علي عاتقه مهمة جسيمة ألا وهي إحداث ثورة فكرية وأدبية لإنتشال وطنهم من تلك المحنة التي يتعرض لها. وكان صوت أونامونو خلال الخمسين سنة من حياته الفكرية هي الأهم والأكثر تأثيراً، ولا يوجد بجانبه صوت آخر يمكن مقارنته بصوته في قوة عاطفته ولا في جديته، سواء في الأدب أو السياسة أو الفلسفة. ولم يكن ملتزماً بتعاليم الكنيسة، ولكن كان دائماً يبحث عن حقيقة لم تكن عقلانية، ولكن من ذلك النوع المفعم بالحياة.

وقد تأثر أونامونو بالفكر الوجودي، ولا سيما عند كيركجور. وحتى نعرف مدي مكانة كيركجور وأهميته عند أونامونو نجد ذلك واضحاً تماماً في تعلمه الدانماركية خصيصاً بهدف قراءة كيركجور في لغته الأصلية.

إن موضوع الفلسفة الحقيقي وهدفها الأسمى الإنسان بلحمه وعظمه. إنه الإنسان الذي يعيش ويتنفس، إنه الفرد المتفرد وليس الإنسان النظري أو التجريدي. إن الفلسفة تفي باحتياج الإنسان لرؤية الحياة والعالم ككل.

يرفض أونامونو بشكل قاطع وجود معرفة من أجل المعرفة أو فلسفة من أجل الفلسفة، ولكنه يجذب الفلسفة العملية حتي يتم التفاعل معها. وأن الفيلسوف ينبغي أن يبتعد تماماً عما هو نظري. لأن الفيلسوف إنسان قبل أن يكون فيلسوفاً، فإنه بحاجة الي أن يعيش حتي يتفلسف.

وهناك اختلاف بين الحياة والمعرفة، فالحياة شيء والمعرفة شيء آخر. وأن كل ما هو حيوي علي النقيض مع ما هو عقلي، وكل ما هو عقلي علي النقيض مع الحياة.

إن الإيمان لا يتسق مع ما هو عقلي، وعلي الرغم من ذلك فإن الإيمان والحياة والعقل في حاجة الي بعضهم البعض. والعقل والإيمان لا يتفقان، ولكن لا ينفصل أحدهما عن الآخر. فكلاهما لا يوجد أمامهما سوي أن يتساندا ويتشاركا، لكنها مساندة ومشاركة تتصف بالصراع.

والإيمان بالألوهية عند أوثامونو يمثل السند الحقيقي والجوهري ليس للحياة الإنسانية فقط ولكن للكون بأسره. إنه القوة المطلقة التي تأخذ بالإنسانية حيث الاستقرار الروحي والرغبة في الخلود. ومن الممكن أن نجد إنساناً لا يؤمن بوجود الله، وهو في هذه الحالة يتناقض مع إنسانيته، وأن موقفه هذا يوصف بأنه مثيراً للرب، ولكن ما لا يمكن استيعابه في الرغبة المتواجدة عند البعض في ألا يكون الله موجوداً. إن هذا الموقف أقل ما يمكن أن نصفه به، هو أنه موقف يتصف بالفظاعة، ولا يمكن مقارنته بموقف آخر مهما كانت فظاعته. ولا يمكن لأي إنسان أن يتخيل نفسه باعتباره غير موجود. فهو لا يرغب في الخلود فقط وإنما يريد أن يواصل النمو داخل الخلود.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر:

أ- مصادر مترجمة باللغة العربية

١- ميغيل دي وأنامونو - الشعور المأساوي بالحياة - ترجمة : علي ابراهيم اشقر
- منشورات وزارة الثقافة - دمشق - ٢٠٠٥ .

ب - مصادر باللغة الأجنبية

1- Unamuno , Migel De , Peace in War , A Novell , Translated by Allen Iacy and Martin Nozich with Anthony Kerrigan, Bollolingen series IXXV. I ,Princeton University press.

2-Unamuno, Migel De, The Agony of Christianity ,Translated with an Introduction By kurt F, Reinhardt .Fredrick Ungar co. New York , 1960.

3- Unamuno Migel De , The Private world , selections ,from the Diario In time and selected letters 1890 – 1936 Translated by Anthony Kerrigan , Allen Lacy and Martin Nozich , Bollingan series Ixxxx.2 princeton university press.

4- Unamuno Migel De , Tragic sense of life , Translator J.E Crawford Flicht , Macmillan and co, limited st , Martin's Street , London.1921.

5- Unamuno, Migel De : Abel sanchez and other stories , Translated and with an Introduction by Anthony Kerrigan A Gateway Edition , Henzy Regnery company chicaco , 1956.

ثانياً : مراجع عامة :

أ - باللغة العربية :

- ١- د. إبراهيم مذكور - في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه - الجزء الأول - دار المعارف - طبعة الثالثة - ١٩٧٦ .
- ٢ - د- إمام عبد الفتاح إمام - كبير كجور رائد الوجودية - الجزء الثاني - دار الثقافة للنشر والتوزيع - ١٩٨٦ .
- ٣- اميل بوترو - العلم والدين في الفلسفة المعاصرة - ترجمة د. احمد فؤاد الالهواني - الهيئة المصرية للكتاب.
- ٤- ابن رشد - الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة - تحقيق لجنة أحياء التراث العربي في دار الأفاق الجديدة - بيروت - ١٩٨٢ .
- ٥- أ. وولف - فلسفة المحدثين والمعاصرين - ترجمة د. ابو العلا العفيفي - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ .
- ٦- برتراندرسل - حكمة الغرب - الجزء الثاني - الفلسفة الحديثة والمعاصرة - ترجمة د. فؤاد زكريا - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - ١٩٨٣ ص ٢٩٦
- ٧- د. توفيق الطويل - أسس الفلسفة - الطبعة السادسة - ١٩٧٦ .
- ٨ - جيمس كولتير - الله في الفلسفة الحديثة - ترجمة فؤاد كامل - مكتبة غريب ١٩٧٣
- ٩- دافيد مارسيل - فلسفة التقدم - ترجمة د. خالد المنصوري - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٧٨ .
- ١٠- رالف بارتون بيري - أفكار وشخصية وليم جيمس - دار النهضة العربية - ١٩٦٥ .
- ١١- د - زكريا إبراهيم - دراسات في الفلسفة المعاصرة - مكتبة مصر - ١٩٦٨ .
- ١٢- د. عبد الرحمن بدوى - نيتشه - الطبعة الخامسة - وكالة المطبوعات - الكويت - ١٩٧٥ .

- ١٣- د - عبد الرحمن بدوي - دراسات في الفلسفة الوجودية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - الطبعة الأولى - ١٩٨٠ .
- ١٤- د - عثمان أمين - ديكارت - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة السادسة ١٩٧٦ .
- ١٥- د. عزمي إسلام - مفهوم المعني دراسة تحليلية - جامعة الكويت - حوليات كلية الآداب - الحولية السادسة ١٩٨٥ .
- ١٦- سبينوزا - رسالة في اللاهوت والسياسة - ترجمة وتقديم حسن حنفي - مراجعة د. فؤاد زكريا - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - ١٩٧١ .
- ١٧- د - فؤاد زكريا - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - ١٩٨٣ .
- ١٨ - د. محمد فتحي الشنيطي - فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد - مكتبة القاهرة الحديثة - ١٩٥٧ .
- ١٩- د. محمود زيدان - وليم جيمس - دار المعارف مصر - ١٩٥٨ .
- ٢٠- د. مراد وهبه - المذهب في فلسفة برجسون - مكتبة الأنجلو المصرية - دار وهدان للطباعة والنشر - الطبعة الثانية - ١٩٧٨ .
- ٢١ - نيقولاى برديائف - الحلم والواقع - ترجمة فؤاد كامل - مراجعة علي ادهم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٤ .
- ٢٢ - يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط - الطبعة الثالثة - دار المعارف بمصر - ١٩٦٥ .
- ب - باللغة الأجنبية

1-Alfred stern, Unamuno Pioneer of Existentialism, Cambridge university, press, 1967.

2- Angel Del Rio – Miguel De Unamuno , Tree Exemplary Novels , Translated by Angel Flores, Grove Press, INC ,New York , 1956 .

3- Barea , Arturo ,Unamuno ,Bowes and Bowes , Cambridge, 1952.

- 4- Berdyaev, N, The Divine AND The Human, Trans By R.M. French , Geoffrey Bles London.
- 5- Berdyaev ,N, slavery and freedom Trans , By R.M.French , 1944.
- 6- Berdyaev ,N, Solitude and Society , Translated From The Russian By Gloffrey Bies , London , 1938.
- 7-David pace, cloude Ievi , strouss , the Beorer of Ashes Rutledge and kegan paul, 1983.
- 8- Harry , K , wells – pragmatism – International Publishers ,1954.
- 9- Hume ,D, Enquiries ,concerning Human understanding and concerning The principles of Morals , third edition – clarendon press , oxford, 19759- James , W, Pragmatism, Longmans , Green and co , 1949.
- 10- James,W, The Varieties of Religious Experience, Longmans Green and co ,1909.
- 11- James ,W,Essays on Faith and Morals , longman , Green and co ,1949.
- 12- Marcel ,G ,Being and Having – A Translation by Katharine Farrer of Etre et A voir – Printed by Robert Machebose and company limited The University Press ,Gladgow , 1949.
- 13- Marcel ,G ,Home viator , Translated by Emma croufurd harper ,& Brother New York , 1962.
- 14- Martin Nozick, Unamuno, The Agony of Belief, Princeton university ,New Jersey, 1982.

15- Mary Ann Alessandri, Flesh, and Bone Unamuno's Quixotism as an Incarnation of Kierkegaard's Religiousness , The Pennsylvania state university, 2010.

16- Ortega Y Gasset , Jose , Man and Crisis , Tran form the Spanish by Mildred Adams, George Allen, univin Itd London , 1959.

17- Paul Edwards , The Encyclopedia of the Philosophy, The Macmillan and company and the free press ,New York ,1972 , Vol.,3.

18- Rudd,M,T,The lone Heretic A Biography of Miguel de Unamuno , jugo,university of Texas press ,Austin , 1963 .

19-Voltaire, Philosophical letters, Translated with An Introduction by Ersset Dilworth , The Bobbs , Merrill company ,INC,1961.

20 - W.T.Jones , History of western Philosophy ,The Medieval Mind , Second Edition ,Harcourt Brace Javanovich INC. 1952.

